

كتاب في فنون

يقدم

كتاب في فنون

دين . وطنية . اجتماع

ذئاب في جلود الضأن

الروح وهراء

إلى شقيق الروح ومرفأ الراحة ...

إلى ملازمي في أفراحي .. وقسيمى في أتراحى ...

إلى أخى فى الله .. الأستاذ بركات "عبد الجواد السقا

الطالب بالأزهر .

كمال الدين زغبول

فضيلة شيخ علماء دمشق

إلى الشاب النابه الأستاذ زغلول

اطلعت على رسائلك . فسررت كثيراً . من صادق وقائك
لأستاذتك وزاد في سروري ما لاحتته من جمال في التصوير :
وروعة في الخيال : وقوة في القلم : ودقة في الأسلوب

والحق انها باكورة تبشر بعبقريّة في الأدب ، فسر إلى
الأمم ، تحذوك قوة العزيمة وترعاك عناية الله

يبد أنى أرى أن تبعد بالابطال عن الازهريين ويحسن أن
تحدى الموضوع عن أشخاص آخرين

عبد المجيد القمري

الاستاذ الاديب العلامة الشيخ أحمد شلباية يقدم تاليفه المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى القارئ :

قرأت ماديجته براعة الاديب الناشئ « زغلول » في رسائله
فحمدت له هذه الباكورة الناضجة وهذه البراعة البارعة ، التي
استهل بها حياته الأدبية ؛ وهذا المطلع الوافي لقصيد مستقبله
في عالم الكتابة والتأليف وليس العهد بزغلول جديداً ؛ فلقد
عرفته في كتابته الإنشائية منذ ثلاثة أعوام مضت ؛ فتوسمت فيه
مخيلة أديب وخيال شاعر ؛ وشروء عالم بحياة بعيدة المدى
تتراحم على أبوابها الغايات وليس لي من فضل في هذه التشيئة
الأدبية سوى حسن التوجيه إذا عند ذلك فضلا ؛ فلقد كانت
ملاحظاتى على كتابته تعنى دائما بإرشاده إلى موارد الأدب الحى
وارتشافه منها وتجنبه الأدب المحترف الذى يعرضه باعة الصحف
في مجلات مبتذلة - أذكر أنى أرشدته إلى ذلك وعينت له
قراءات خاصة في مؤلفات خاصة ، لمنشئين وكتاب بأعينهم :

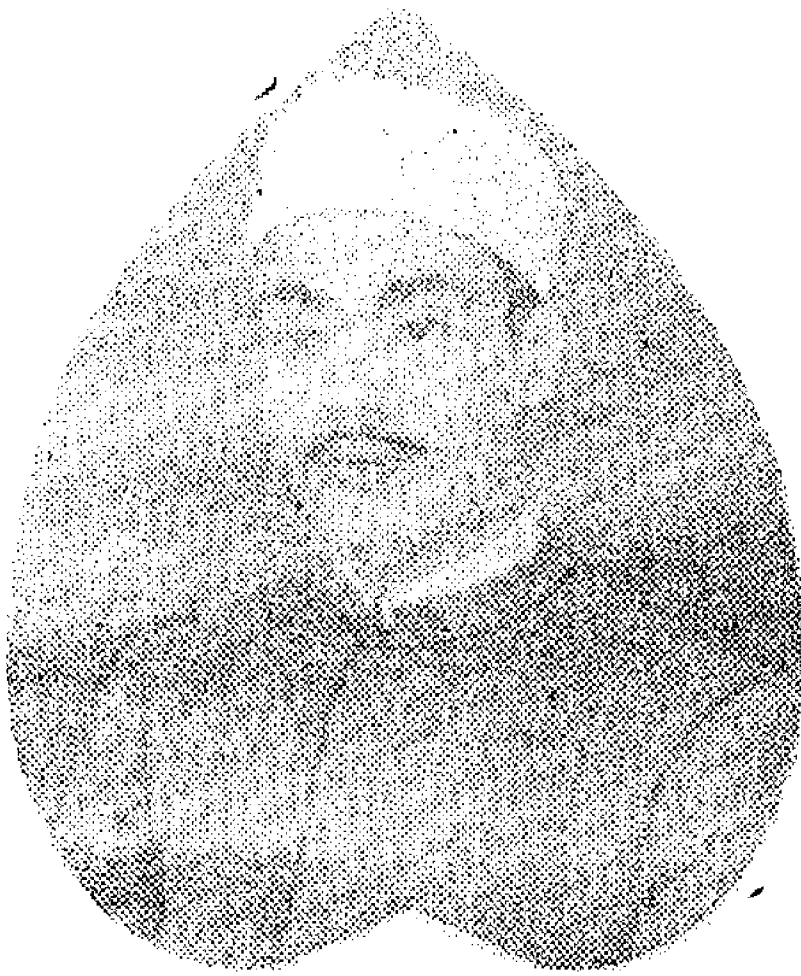
ولا بد أن هذه القراءات قد أثمرت وتثمر ثمرتها المرجوة في مستقبل الزمن . ولقد جاءت (رسائله) جيدة الصوغ : سهلة العبارة ممتعة الفكرة تصف ناحية من مآسى الحياة : وتمثل على مسرح القصة فصلا من روايتها : فترى بين مناظره صورة غصبي لیتیم أسلمته الحياة لمربية متجنية . فظل بين أحضانها يشرب الحياة من كأسها المرة . وترى بين مناظره صورة خادعة تهرق لهذا الیتیم فتريه السعادة كنخل البرق فيبتسم لها ثم يقطب

وترى بين مناظره صورة باكية ممضنة لمأساة شعب حر سيم في وطنه وشرفه فوقه يذب عنه فدفع الثمن غاليا من أرضه فشرد . ومن ماله فاقتقر . ومن ولده وأهله فخر كل شيء إلا هذه الغلالات التي تجود بها الشعوب عليه بين حين وحين

وترى في مناظرها صورة بغیضة لصداقة مزيفة دل عنوانها على ولاء وحب وطوت بين جانحتها خيانة أثيمة مروعة ! وهكذا تقرأ وتشاهد الحياة في فصولها وعبرها وماهى إلا دمة وابتسامة ، وغضب ورضا والله در شوقی إذ يقول :

وإذا تأملت الحياة رأيته « عرسا أقیم على جوانب مآثم
فالى الأمام أيها الأديب والله يرعاك . وسلام عليك .

« احمد شلبايه »



بسم الله الرحمن الرحيم
سلاما وتحية وبعد
فليس ثمة مرء في
أنسا . شعب وادي
النيل طرأ قد تنسمننا
عبق الحرية واستفنا
نشر الكرامة والسيادة
مذ وثب الجيش وثبته
المباركة فطر د (فاروق
الاول والاخير)
الى غير رجعة

وقوض بنيان العهد الماضى تلك التى قامت على جرف من التفكك
والفوضى والانحلال والبطالة والكسل والإلحاد والإباحية
وشيد بدلهما صرحا وطيدا لعهد دعامته إتحاد . وقوامه نظام .
ومساكه عمل وحطم المعازل وكفل حرية الرأى وتعهدا
وهاأنذا يا أخى . أنهض مع النهضة . وأسائر العهد الجديد
ولست أضرب إلى غير غاية أو أصوب لغير هدف أو أحاول
بلعاج من القول . ومهاترات من الكلام وترهات من الاقاويل
أن اكتسب شهرة أو مالا - كلا وعمر الله - وإنما الى الغاية التى

أضرب اليها والهدف الذي أصوب نحوه . والفكرة التي
مازجب قلبي . فآمنت بها وأخلصت لها . ونزعت الى العمل على
إبرازها وجلائها . وإليك يا أخى - من ذوب وجداني أصوغ
(فى رسائل) قصصا وأحاديث استلهمتها الدين والوطنية .
وعاصرت على مسرح المجتمع وقائعها . لتكون وطنيين حقا
اكفاء لنشر أقدس وأسمى رسالة في الوجود دعاة أوفياء لها مجاهدين
فى سبيلها مضحجين من أجلها بالنفس ونفيسها والغالى والمرتعص
ويا أخى : إذا سجلت على هفوة .. أو اخذت على ذلة . فالتمس
لى المَعذرة ولم لا أطمع أنا فى عفوك عن هفواتي . وصفحك
عن زلاتي . الست أخى وزميلي فى الجامعة التى تؤهلنا معاً
لحمل الرسالة القدسية نصل بها بين الناس ورب الناس

والآن دعنى أقدم الشكر من أغوار اغوار نفسى وأعماق أعماق
قلبي لأستاذى شيخ المعهد الذى تنازل وأرشدنى . وأستاذى
(أحمد شلبايه) الذى لولاه ما كنت وما كانت (رسائل) وإخوانى
الذين دللوا بما صنعوا معى على مدى وفائهم لى ومنزلى عندهم
وإلى لقاء قريب . يا أخى - فى عيد جديد يتبعه إن شاء الله
أعداد وأعداد

المؤلف

« رسائل يتامى »

عشت تشعل الشموع للبائسين الحيارى ، ونار شموعك تلتهب
فى صدرك التهايبا وبعث روحك رخيصة فى سبيل هدى الحائر
الضال وانت - بعد ذلك كله - راض بالحرمان . وحكم القدر .

دعوني يارفاق اجل دعوني اداوى (خافق الصدر) العليلا
فقد هام الفؤاد بغير (ليلي) وكان الليل فى ليل طويلا
هجرت الغانيات وكان مثلي بحب الغانيات قتي قتيلا
وهمت بروضة الادب المفدى وطرت محلقا فيها اصيلا
قرأت (رسائلي) فوجدت فيها عظات ساميات لن تحولا
عظات من لدن فطن لبيب اضاء لطالبي الحق السبيلا
(كمال الدين) انت لنا لواء فهاى القول واهد به العقولا
وسلسل من (رسائلك اليتامى) بحورا جاريات سلسيلا
وضم لروضة الآداب زهرا بديعا فى تفتحه . جميلا
ورفرف فى العلا بجناح نسر وطر نحو السما واسبق سبيلا
وخط لى السماء سطور نخر لجيل ماجد يأبى الخولا

« زرق السيد هيبه »

طالب بمعهد دسوق الثانوى

ليظل خفاقا

كان ذلك في العام الماضي . إبان حركة التحرير في القنال
و ذات مساء . والليل ساج . والنسيم رهو . والنجوم
المزدهرة تتألق في كبد السماء . وفي رحاب الطبيعة الريفية العذراء .
على مرتفع من الأرض معشوشب . كان ثمة شاب . قد تمدد
على جانبه وأثنى ذراعه . واعتمد عليها بوجهته . وراح يتسمع
إلى حفيف الأغصان عندما يهف بها النسيم . فيجيش في قلبه
الحزين إلى حبيبته . تلك التي خلفها بالقاهرة . ويتلف عليها .
وتضطرم في نفسه لواعج الشوق إلى لقاءها . وكأنه رحل عنها
منذ حوالين لا يومين !

وإن هاته النجوم الزهر . لهي الآن كل ما يستلفت بصره
ويستهوى ناظره . وكيف لا وهو يرى « وداد » بوجهها القسيم

تطل عليه من كل نجمة متى ركز فيها نظره . مرفقة كالفراشة
بأديم الشعر . منطلقة الحيا . متהלلة الأسارير وكلما اهتزت خيوط
الضوء . تلك التي تنبعث من ابتسامتها وتنتهي إليه فتغمرو وجهه . كلما
اهتزت تلك الخيوط . خفق قواده . وأحس فيمنأ من الآمال
الحلوة يعتمل في جوانبه فيعلو من أجل ذلك صدره ويهبط .
ثم يخالها قد دنت منه . فيمد يده ليتلقى بها راحتها . وأثناء ذلك
يشعر باضطراب يسرى في شتى أنحاء جسده . هو أشبه ما يكون
بمخطئة الكهرباء . فيتراجع . لولا أنها تبدى له . أدنى من
ذى قبل . فيستجمع شتاب قوته . ويعاود الكرة مرة أخرى
فتمتد ذراعه إلى نهايتها . غير أنها تلتهى إلى لا شيء . وهنا
تصدمه الحقيقة الواقعة ... فما النجوم له بدانية وهيئات هيئات .
أن يتجسم له طيف الخيال !

لقد استشعر فتانا من نفسه ضجراً . لطول صراعه ذلك
النفسي . فاعتدل جالساً . وأشعل سيجاراً وجرى في حبال هواها
وجعل يحاذيها قبلة بقبلة . على أنه لم يلبث . أن أحس اضطرابها

في صدره . فستهم هواها . ومل أنفاسها . فطوح بها عن كشب
منه . وجعل يحدق فيها . وهي تو مض بين أعواد الحشيش الأخضر
حتى تلاشي وميضها رويدا . . رويدا .

وكان القمر قد انقشعت عنه سحابة كبيرة مربدة حجبت ضوءه
منذ بزوغه . فغمر الكون والآفاق . بنوره الزاهر الرفيق
وتسللت أضواءه من خلال الفرجات الضيقة في الشجرة القائمة
من الفتى غير بعيد . وسقطت على الأرض . فبدت في الظل
كأنها القطع المستديرة . من الفضة المصقولة . فسحرتة واستهوتة
اليها . فنهض سارياً . حتى بلغها وأخذ ينقل طرفه في تلك السكرات
الفضية بين مفكر ذاهل . ومعجب مأخوذ .

واتفق في هذه اللحظة أن صدر من أعلا الشجرة صوت
طائر يرفرف ليتثبت في مكانه . ورفع الشاب هامته إليه يتبينه
فنظر طائرين على غصن . قد استنام أحدهما برقبته على الآخر
وراحت تصدر منهم أصوات خفيضة شجية كأنهما يتبادلان الهوى
أو يقشاكيمان النوى وأثار هذا المشهد ذكريات « الشيخ جمال »

فبقى واقفاً كالمتمسك المصموق ، لا يحول عن الطائرين بهمره
بيننا راحت ذاكرته ترالى عرض ما حدث بينه وبين فتاته
« وداد » فى القاهرة عند لقاءها الأخير الذى أتى إلى قريته عقبه
منذ يومين !

إنه يقطن منزل تلك الفتاة من ثلاث سنوات عند ما نزل
القاهرة والتحق « بكاية الشريعة » بعد أن حصل على الشهادة
الثانوية من « معهد الزقازيق » حيث ترابض قريته من تلك
المدينة على مقربة وأنه الآن لا يتذكر كيف كانا جالسين إلى
بعضهما كهذين الطائرين . وكيف كان صوتها الرطب ذو النبرات
الموسيقية يصل إلى سمعه حزيناً وهى تقول له باكية : مهما يكن
يا شيخ جمال . فإنى أستحلفك الله ألا تقدم على فكرة التطوع
آه يا رى .. ما الذى يمكننى أن أصنع لو ضرب القدر بيننا
بفراق أبدي ؟ !

كانت « وداد » ابنة صاحبة المنزل الذى يقطنه « الشيخ جمال »
فتاة فى ربيعها السادس عشر . كلها أنوثة وجمال . وبقدر جمالها
رأنوثها كانت تقواها وورعها . فهى على نقىض فتيات العصر

الماجنات . عازفة عن التطواف بالشوارع بادية الزينة متبرجة :
زاهدة في المجتمعات الصاخبة . راغبة عن ارتياد مواقع اللهو الغير
برىء . تعرف ربها وتصلى له . وكل ذلك بفضل « الشيخ جمال »
وما كان يسديه اليها من نصيح . ويروضها عليه من مكارم ومحامد
قد ربط بينهما الحب العنيف برباطه المقدس

بيد أنها هي الأخرى كانت صاحبة أياد بيض عليه فلقد
طالما تفانت في طمأنينته . وتفريج ضوائقه وكرباته . قد أدركت
ظروفه العائلية . هذه التي حتمت عليه أن يعيش ما بين آلام
الفاقة . وقسوة الاحتياج ومراراته . ولذلك تراه قد بدأ يحجبها
بصوت رفيق آتئذ كانت تريق عبراتها بين يديه تناشده الا يتطوع
قائلا : « وداد . يا عزيزتى : إنك هنا فى المنزل لا تدرين مدى
ما ينالنى من استهتار زملائى بى إن الفاضلهم الجارحة . تلك التى
تلاحقنى أينما سرت وحيثما حللت . لهى كالأسواط اللاذعة
تلهب ظهرى أو السهام المسمومة تدمى فؤادى . وإن الواحد
منهم لا يسعه عندما ينظر إلى . إلا أن يرفع حاجبه عجباً أو يقطب

جبينه كراهيه وغضباً . أو يوليني من شفتيه شيئاً كالا بتسامة
يقطر سخرية واستهزاء . لم يشفع لي في كل ذلك تفوق أو ذكاء
والواقع يا وداد أنتى بكل هذا حقيق . لأن مثلي إنما كان يرجى
منه أن يكون في طليعة الصفوف . ولولاك لولاك يا وداد لكنت
الساعة في حشد المجاهدين . بيد أن الجهاد فرض ودين لله والوطن
رقاب الشباب أمثالي وها قد ملاً ناقوسه الأجواء . دقا . ولا
معدى لي عن أن أجاهد قط .. وسيان عندي أن تغنى أو تكوني
باكية ، وهنا لا تمالك ، وداد ، إلا أن تضاعف من بكائها
ويعلو نحيبها !

وفيما هو سابح في ذكرياته ارتفعت في الجو فجأة أصوات
انفجارات وأعقبها قصف مدافع ودوى وطلقات جعلت الأرض
ترتج من تحته شاكية إلى باسطها . وحشية الإنجليز القراصنة
والطائرين يفران من مبيدتها الآمين . ودمعات الإطل تساقط عليه من
أوراق الشجرة والحماصة تتدفق في شرايينه . وانتقل بكل مشاعره
وأفكاره إلى « السويس » حيث الصراع الهائل البغيف بين الحق

والباطل - حق أبناء النيل في واديهم وباطل كلاب التاميز
المتشردين وود أن لو حملته الريح إلى هناك ليوفى دينه . ويدلى
دلوه وتمنى أن لو يطير .

وقضى وقتاً ليس بالقصير على مثل هذه الحال . ثم تنبهه
أخيراً إلى أن الليل قد مضى منه أكثره . فضلا عن أنه قد
أوغل في سراه . حتى كادت قرينه أن تتواري عن نظره
فقفل راجعاً وقد بيت في نفسه أن يرحل إلى القاهرة عندما
يتنفس الصبح . فينتظم بإحدى كتائب المتطوعين . ومن
ثم يرحل إلى « الميدان »

كان قد بقي يوم أو يومان على انتهاء مرحلة تدريبه وكان
قد تعود في أيامه الأخيرة . أن يصعد أصيل كل يوم . سطح
المنزل الذي يقطنه . فيمكث هناك إلى قبيل الغروب لا يحول
نظره عن علم يخفق على سارية أحد المصانع حياله . غير أنه
كان قد انصرف عن صاحبه « وداد » تماماً لظنه أنها ربما
تكون قد زهدت فيه . أو رغبت عنه لمخالفته لها . وخروجه

على إرادتها على حين أنها كانت تنتظر في هذا اليوم صعوده إلى
السطح بتوق وشغف فما كاد يصعد حتى تبعته وأستدار إليها كأنما
أزعجه قدومها المباغت . وأقبلت تقول وهي متتمة تقول في تيه
الحسان ودل الجيالات : « ما لذى يسترعى انتباهك يا شيخ جمال »
فولاهما ظهره . واتجه إلى العلم . وهمهم : ألا يستلفتك إليه هذا
الخفاق .. لشد ما أنا خائف أن يكف عن ذلك !

فعادت تسأله وقد أرسلت نظرها إلى العلم : « وما الذى
يجعله يكف ؟ » فدنا منها . وأخذ راحتها بين يديه وأجابها وهو
يضغط عليها : « عندما تسكف دماء أباة الضيم عن أن ترافى حول
ركازه » . فأنفجرت شفتاها عن ابتسامة عذبة وضيئته قالت
بعد أن سلبت منه راحتها في لطف : « إنه يجب أن يظل خفاقا
حتى يرث الله الأرض ومن عليها .. ! » . قالت ذلك واستدارت
منصرفة عنه كما جاءت إليه متتمة بينما ظل هو واقفا يتأملها في دهشة
واستغراب من أمرها . حتى توارت عنه هابطة في ثنايا الدرج

وفي صبيحة أحد الأيام شاهد مواطنو القاهرة . كتيبة من
الفدائيين الأشداء . بأسلة جأواء . تنطلق في الشارع في سيارها
إلى القطار الذي سيقلمها إلى « السويس » ومن خلفها كانت تسير
كتيبة أخرى من الفتيات « الفدائيات » . بين تصفيق المواطنين
الذين تراحموا على جانبي الشارع . وزغاريد المواطنات في الشرفات
والنوافذ . وقد طننى قرع الطبول على هذا وذاك بينما سارت
الكتبتان تكادان أن تخرقا الأرض خرقا وفي المقدمة سار حامل
العلم الفدائي « الشيخ جمال » .

وهناك في القطار أخذ الجنود يتعانقون ويتصافحون وفيها
كان « الشيخ جمال » يستدير متفقداً أحد زملائه رأى « وداد »
وقد جلست في صف « الفدائيات » تنظر اليه شاحخة برأسها ترقص
في محياها ابتسامة النصر والظفر . فهزول نحوها وهتف وهو
لا يكاد يصدق عينيه : « وداد .. أهذه أنت ؟ لم فعلت ذلك
يا وداد ؟ » . فأجابته وعلى شفتيها ابتسامة كانت أعرض في هذه
المرة من كل ابتساماتها السالفة : « ليظل خفاقا يا شيخ جمال »

وهناك أنبعث صفير القطار إيذاناً بالرحيل . على حين ارتفعه
أصوات المواطنين تقصف كالرعود :

لبيك وادى النيل لبيك . . .

دم الشباب وقف عليك

يوم المظاهرة الصامتة

من بين معارفى من الزملاء صديق امتاز بشعوره المرهف وحسه الدقيق . وذكائه المترقد فضلا عن دماثة خلقه وكرم سجاياه وحميد خلاله . . .

والغريب أنه لا يلاقيك أو تلاقيه . أو يجلس إليك أو تجلس إليه . إلا وتشهد هالة غريبة عجيبة تحيط به . على أنك لا تستطيع أن تدرك كنه هذه الهالة الغريبة العجيبة . وكل ما هنالك أنها تحملك على احترامه . وتجبرك على تحيته وتجلته فإذا ما جلست إليه وحدثك . أحسست بونا شاسعا بينكما . وشعرت بفارق كبير لذلك فأنت لا تملك إلا أن تصغى وتصغى بكل حواسك وجوارحك . لا تؤاخذنى - يا زميلى - إن أنا حكمت عليك بذلك : فذلك هو عين شعورى عندما أجلس إليه أو يجلس إلى . أو ألاقيه أو يلاقينى

ما علينا - فإني ما كنت أبلغ باب حجرتي . عقب عودتي
 من « المظاهرة الصامتة » وأشرع في تبديل ملابسى . حتى
 فوجئت به يدخل على . بعد غيبة استغرقت أياماً . ويقول -
 دون أن يقرأ سلاماً أو يلقي تحية - : « ويلكم .. بالأمس
 لم أتم الدنيا صياحاً وجئيراً . ثم جئتم اليوم لتتظاهروا صامتين
 ولعمري لست أعرف أو أرى لتظاهركم هذا موجباً أو مبرراً
 فما معنى ذلك ؟ . ولما رأيتى أحلق فيه ذاهلاً قال : « ولم الدهشة ؟
 إنك واحد من الملايين الذين قاموا بمظاهرة اليوم . فهل فى مقدورك
 أن تطلبنى على مبررها وموجبها وتحدثنى - ولو قليلاً - عن
 الوطن والوطنية . هذين اللذين صدعتم بهما رؤوسنا ؟ » . قال
 ذلك واستلقى على أول مقعد صادفه فجالت تجاهه . فى حيرة
 من أمره . وعذاب من حديثه . وألم من منطقة هذا السقيم .
 وقد عتدت الدهشة لسانى . وكأنما أستكثر مدة صمتى فعماد
 يلج فى الجواب فأجيبته وقد بدأت السخرية منه . تنطرق إلى نفسه :
 « الوطن .. . وما أدراك وأمثالك ما الوطن ؟

الوطن يا صاح : إسم إذا ذكر أحسست حدهاء يتجاوب
في أركان نوادي . فما بالك بحقيقة الوطن ؟

الوطن يا هذا : هو ذلك القدس المقدس . الذي يقبدي لي
دائما ذا روعة وجلال . وبهاء وجمال . فإذا حاولت أن أترجم
بلساني أو قلبي عن تلك المعاني . اعتاس على ذلك لأن وادني
فوق تذكرني وأسمى من تحبيري !

يا صديقي يا صديقي إنه عهد طويل . وعمر مديد . ذلك الذي
قضاءه وادي النيل بين النار والحديد . إنها سبعون عاما مترادفة
متوالية - أو تزيد - تلك التي قضاه الغاصبون البريطانيون
في الارض الطيبة . بالرغم من ذويها وأهلها نهبوا فيها كل تلبد
وسلبوا كل طريف وتركوا جوعا . وأكلوا « كل الرغيف »
بينما جرعونا كمثوس الردي . وسامونا سوء العذاب !

يا صديقي يا صديقي : إنها سبعون عاما حنلت بالدماء
وزخرت بالوحشية . وفاضت بالخداخ والغدر وإنه لا ينخلو يوم
من أيامها عن حادثة دامية . اقترفها الإنجليز وأدمت فيه أشوا كههم

أجسادنا وأقدتنا معاً .. لكأنى بالأرض المقدسة قد عافت
أن تكرع دماء شهدائها الأبرار وأبت إلا أن تسطر بها صرخة
الأجيال في كل مكان وطأته أقدام القراصنة .. هذه الصرخة :
« هنا من انكليزى »

وأخيراً .. وأخيراً آن للشعب المنكوب أن يهب من
رقده ويفيق من غفوته ثم طفق لسكر مواطن يكشف
لأخيه عن الجروح التي خلفتها به سهام الإنجليز وأظفارهم ثم هبوا
جميعاً واتجهوا نحو الحكم متسائلين : « إلام الخنوع ؟ فأجابهم
الوطنيون من الحكم متسائلين : « وحتام نشكو ولا نستطيع ؟ »
وعاد الشعب الابى يسأل حكامه : « وإلى متى نذرف فيض
الدموع » هيا بنا لنؤكد للخاصين أننا قد عقبتنا العزم على
طردهم من ديارنا - رصوا أم لم يرضوا - هيا بنا لنبدل لهم على أننا
قد أجدنا لغة القوة التي لا يفهمون سواها ولا يدعون إلّا لها
تعالوا معنا لنريهم كيف وأننا جميعاً متضامنون ومتحدون
- في غير نشاذ - على العيش في وطن تسوده الحرية وينعم

بالعزة والكرامة نحميها فيه مذهبنا الحق وديننا السلام .
ولم يهتم ليل اليوم أريهة عشر من شهر أكتوبر ان عسكس ، وصبيحة
ان تنفس ، وخرج المواطنون علي اختلاف الوانهم وطبقاتهم في
المدائن و الحواضر والاقاليم ، يطوفون في فجاعات الشوارع
وساحات الميادين صامتين ولقد شاهدت ما لست ناسية وان
انساه ما بقيت . . . شاهدت موكبا قد امتد إلى امام وخلف
حتي انه لا يبلغ الطرف مسداه واتسع عن يمين وشمال فلست
احد اقصاه انتظم جميع ابناء المدينة وما جاورها من قرى
الريف ولقد كنت اطالع آيات الوطنية الصاعدة في كل وجه
اراه وحتي الريفيين كنت اطالع ذلك على وجوههم في ابانة
ووضوح بيدانهم اولئك الذين انهمذاهم لطوبيتهم وما انطوت
اليه نفوسهم من طهارة وسماحة بالسذاجة والبله

وتحرك الموكب التاريخي يؤمه رجال الدين والقضاة
فرجال العلم فطلابه . فالعامة وقد تلاصقوا بالملك حتي اكانهم
الجسد الواحد تفرعت منه آلاف الرؤس في جوار من الصمت
العميق كأن علي رؤوسهم الطير تهب سيماء عن مدى نيرهم
وضجهم وضيقهم بالامتعار والمستعمرين ا

وهكذا ظلوا يسرون حتى طافوا بسكافة أنحاء المدينة ثم
انصرفوا كما أتوا كل إلى حيث جاء فكانت لهم رهبة وكانت
لهم روعة وكان لهم جلال وهيبة ! « وهنا حز في نفسي أن
يقاطعني صديقي قائلاً - في تهكم واستخفاف مريرين - : لنسلم
جدلاً بما قلت وليكني أسائلك : أي نفع عاد على الوطن من
كل هذا ؟ ، وكان قد بلغ مني الغضب أقصاه والغضب مداه
فأجبت في ثورة مباغتة : « ما بالك يا صاحبي تتبدي لي اليوم
إنساناً غريباً أنكره يناقض ذلك الإنسان الذي كان يحلولي دائماً
أن أقلده فيما يأخذ وفيما يدع وفيما يقول وفيما يفعل ..
ألمست تدرك أنك برأيك هذا الأفون وعاطفتك تلك السقيمة
تجحد حقيقة محسوسة بادية للعيان ؟ »

فقال وهو يتكلف التملطي ويستجلب التشاؤب فياً كل
الأحرف الاخيرة من كلماته : « بحسبك .. شتم .. وعرفني
هذه الحقيقة المحسوسة البادية للعيان »

ونتهي كلامه إلى شتمي له وتطاولي عليه في منزلي فأسفت
لذلك بعض الشيء ، ومضيت أجيبه : من هذا اليوم - يا أخى
الحديد - بينا لذلك الشرذمة من خسارة الأديان - مبالغ إسرارنا
على نيل مطالبنا ، واسترداد ما سلبنا ، فقوجثوا بأنفسهم تجاه
الامر الواقع ، عسلي أننا أثبتنا لبول العالم طرا ، أننا أمة
وادي النيل - أمة كانت منذ القدم أصل الحضارة ، وهي اليوم
لا تقل عن أرقى الأمم حضارة ومدنية وثقافة ورقيا ، كما أثبتنا
للعالم أجمع ، أن كل ما بهتنا به القراصنة ، من أننا أمة بدائية لم
تساير العالم في تطوره وتقدمه - الامر الذي دخلوا بسببه
بلادنا - لم يحسكن سوى محض كذب واقتراء ، وزور مختلق ،
كل هذا ، فضلا عن أن نجاح المظاهرات وانتهائها
سالمسة ، في شتى مناحى القطر ، كان بمثابة السهام ، المسمومة
أحسبنا بها الإنجليز وحلفاءهم ، إذ كانوا يتوقعون أنها ستكون
للسلب والنهب ، والتدمير والتخريب ، فيأخذون علينا ذلك أمام
الدول ، ولكنها جاءت منافية لما ظنوا وعرفوا أنهم كانوا

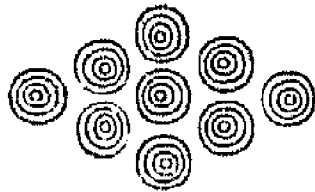
متعلقين بهم ليس كمثله وهم . إذ تجلت في المظاهرات كلها قوة .
هي قوة الفراعنة . وحزم . هو حزم العرب فكان الصمت
شعارها . والهدوء رمزها . والإباء مبدعها .

وها قد آمنت الدول بتلك القوة . الفرعونية . وهذا الحزم
العربي . ولولا الحسد من عند أنفسهم . والامل الكاذب
في بلوغ مطالبهم . لأقرونا على هذا واعترفوا لنا به !

« فلتكثر ذئاب بريطانيا عواء . ولتدعى في البلاد العز
والقهر . ولتسبح في الدماء بالناب والظفر . فليتهم وأذناهم
يعلمون أنهم ما فتحو الشرق . وإنما فتحو به قبوراً للشرب »

وهنا نهض باسمنا ودنا مني . ثم مال على فأحاط منكبي
بذراعيه وقال . « هل ساءك قولي ؟ . فأجبتته محتداً : « إن كل
قول من قبيل قولك قد يقتل فضلاً عن أن يسيء » فعاد يقول :
« لقد كانت قدمي . تصطدمان بمؤخرة قدميك أثناء طواف
المركب بالمدينة »

فقلت وقد تبادرت إلى ذهني حقيقة قصده . فطابت نفسي
وهدأت ثأرتي . ولم أستطع أن أخفي ابتسامة غلبتني : « إذا فما
الذي دفعك إلى التكمم بما تكلمت به ؟ » فأجاب : « إنما فعلت
ذلك لعلمي أنني لا أستطيع أن أخرجك من صمتك . وأسمع
ما سمعت قبل أن أثيرك وأستفزك »



شهوة الماضي ويعت الحاضر

هو أستاذي غمرني بخنان الابوة . تلك التي حرمني إياها
القدر ولم أزل بعد في طي قماطى !

وأدركنى وأنا نهب موزع بين اليأس من الحياة والزهد فيها
والرغبة عنها . فظل بي حتى أحال يأس الحالك فيها إلى أمل
وضئ فيها . وزهدى فيها إلى عمل لها . ورغبتي عنها إلى
كف بها

وبالأمس القريب . حينما قلبت الأوضاع . وضرب
الفساد في أداة الحكم اطنابه وتفشى واستشرى . ودان أحكام
بلدنا السالفون بدين ملوكهم . ذلك الذى قام ينشر فى القرن
العشرين . شريعة الغاب . ويحمل رعيته من بنى الإنسان على
اعتناق مذهب الظفر والناب . حتى كانوا فى غمرة هذا - ينحون
باللائمة على كل من يطلع على المجتمع بهبدأ إصلاحى . ويصفقون

بالأغلال كل من يبدى تبرماً بالضميم أو غيره على الحق ويسفكون
دم كل داعية ديني ويزهقون روح كل شهيد أبي وتواضعوا فيما
بينهم على أن يسموا المبادئ الخالقة المشيدة مبادئ هدامة
يسمونها أصحابها صنوف العذاب التي سقتها بل كثيراً ما كانت
أشد وأنكى وأبشع وأشنع !

وفي صبيحة يوم من أيامنا هذه الهنيئة وبينما كنت
أقلب إحدى الصحف طالعني نبأ اعتقالهم « بالثانوية العسكرية »
فرجعت بي الذكرى إلى الماضي المربد الأسود وتجمست في ذاكرتي
هذه الصورة :

في حصة « الإنشاء » خط الاستاذ على « السبورة » هذا
العنوان : « أكتب عن الفلاح المصري وما يعانيه وواجب
الحكومة نحوه » ثم استدار إلينا وجعل يحلق في وجوهنا
وأخيراً استقر نظره في وجهي وابتسم ثم جلس وتركنا إلى الأقلام
والكراسات وقبل أن أتناول القلم دارت في رأسي هذه
الأفكار : ماذا على لو صرحت بحقيقة ما يعتلج في نفسي ويغلي

فى صدرى دون مواربة أو مواراة ؟ .. وبوازع خفى وحافز
مجهول جرى قلبي « الصغير » الهزيل يسجل على الصفحة هذه
الكلمات :

« حقيق - والله - أن يوصف بصدق التعبير وجودته ذلك
الذى عبر عن مصر بأنها بلد العجائب ومسرح المتناقضات وقبينة
بالدهشة والاستغراب والتعجب والعجب والاعجاب بـ...
تستحيل فيه الدماء إلى خمر والعرق إلى عطور وأطياب تملك
بمسارب الانفاس فلقد يعمرى بها قوم ليرفل فى حلل الوشى
آخرون ويموت بها صنف من الناس جوعاً وحرماناً وعناء
وشقاء لا يعرفون الحياة إلا أقباساً من وهج اللوعة ولا العيش
الاضروباً من عبقرية الالم متخذين من الاكواخ والدوريات
أكناناً ليبتنى للصنف الآخر قصوراً شاهقة توشك ان تناطح
السحاب يكسونها بوثير الاساس وثمان الرياش وقيم التحف
ورائع الصور ناعمين مع هذا بحياة من الهناء وجنات
السعادة ورياض النعيم وجل من قسم الحظوظ ا

هناك ... في ريفنا المصرى الجميل . حيث الطبيعة الطاهرة
تعكس علي نفوس أهله صورها فتعصمها من الآثام وتستل
منها الضغائن والأحقاد . ترى هؤلاء المعذبين في الأرض - كما
يقول أحدهم - أو بتعبير آخر . أمرى القدر . تراهم بأسمائهم
الرثة الرعابيل الملطخة بالروث والطين . ونفوسهم المنكسرة
وقلوبهم الدامية وصدورهم المنقبضة ووجوههم تلك التي صنعت
بها الاحداث أخايد لا تختلف - كبير اختلاف - عن هاته
الاخايد التي يصنعونها في الارض بمجاريهم وأجسادهم التي
نمشتها الآفات . وفرتها الميكروبات وسمرت فيها العلل
والاوباء . تراهم - رجالا ونساء وذراى - يتنقلون على
أديم الارض حفاة الاقدام فتروك بشاعة ما في أقدامهم من
شقوق . ويحز في نفسك من أي ما براحتهم الكادحة المضمناة من
فتوق على أنه يمكنك ان تطامع بسهولة على صفحات هذه الوجوه
المتجهمة . وتسمع من تلك القلوب الدامية . ما سى هؤلاء
الناس « الفلاحين » . أولئك الذين استعبدهم « الباشوات »

واستخدموهم في الارض الى جانب الانعام يلهبون بالسياط
ظهورهم ويستخرونهم فيما تستكشف النفوس البشرية من ان تقوم
به أو تؤديه فضلاً عن ان تقدر عليه وماتهن دونه قوة بنى
الانسان اللهم الا الفلاح في مصر!

ويصبح العاني ويصبح .. ويجار بالصياح ويجار : رحماك
يا ولاية الامور رحماك ورفقا برفقا اتى بشر مثلكم لي شعوري
الحى ووجداني اليقظ وإن الدول الاخرى قد قدرت فلاحها
حق قدره ووضعته في مكانه اللائق به وعرفت فيه انه الذى
يشقى ليسعد بقية افراد الامة وينصب لينعموا ويكسح ويكد
ليهنأوا مثله في ذلك كمثل الشمعة في ذوبانها واحتراقها ضوؤه
الآخرين ونورهم لذلك فهم قد اهتموا بتعليمه وتشقيقه وجزاه
يا احسانه احساناً فأوجدوا له الآلات البخارية والكهربائية
التي تولت عنه حرث الارض وبذر الحب ورى الزرع وحصد
الجنى دون ان يبذل هو من ناحيته جهداً يذكر اللهم الا الجلوس
الى عجلة القيادة وكفالت له الى جانب كل أولئك عيشاً ناعماً

وحياة رخيّة . فلم جعدهموني واعتصبتهم حتى وقضيتهم على أن
حيا وأموت - كما حيت - بين زافرات العاني وأنت الشاكي
أو خلجات الجناح المهيض !

ويصل هذا الجئير إلى آذان ولاية الأمور واهنا واهياً . كأنه
يصدر من طيات القروى الغابرة ويزوب في مسامعهم بين
نفات الأوتار والصنوج في المراقص وقرع الكؤوس في البارات
والصلوات والهرج والقصف والعربدة في مكات السهرات
الحمرء والموائد الخضرء . . .

وأنى لهم - بالله - أن يسمهوا أو يستجيّبوا وهم ذواتهم
« الباشوات » ملاك الاقطاعيات . الذين يخشون إن هم
ثقفوا الفلاح . أو وفروا عليه جهده أو أبغوا عليه دمه . أو
جففوا عرقه الممزوج بدمه يخشون إن هم فعلوا ذلك أن
يتدمر عليهم إيجاد ثمن الخمر والملبس القشيب والماء كل الشهى
وبعثة الأموال تحت أقدام الراقصات . ونثرها على مواطىء
الغانيات والكواعب الحسنات وأجور المصايف في أوربا
وبلاد الغرب .

آهة هري . . . وزفرة ولهي ولك الله يا فلاحنا المسكين
واصبر فانه ان ينقضي طسويل وقت حتى ينتكت فتل دولة
« الباشوات » وتهدم أركانها ويقتل رخص بنيانها وتصف بها
قوة الرب القوي المتين . . .

وأما أنا أيها الفلاح البائس . فشهد الله أني أحيا من
أجلك وأعيش لاثار لك فان حيل بيني وبين ذلك فبحسبك قلبي
يوحي إلي قلمي ومما يسجل القلم يمكنك أن تشتف إكسير
العزاء ووجه الله باق أكرم بوجهه من قاض ومنتقم . . .

هذا هو كل ما اعتلج في نفسي - إبانها - فسطرته وعلى
في صدرى فأعربت عنه وكأن « الشيخ » اشفق على - اذا
المصفر - من الحكم الجائر والسيف الباغى وغياهب السجن
المحلول لك فمقب لي بقلمه ما نصه : « اى بنى : لك ان ترسم
طريق الاصلاح الناجح وليس لك ان تبهر بما يسمونه
« مبادئ هدامه » ومالك من سلاح دون قلمك وانت فى زمن
السيف والحكم والسجن ثما يغنيك قلمك فتيلا ومن حقى عليك
ان تصحك ومن حقك لى ان تمتصيح فستكف وحسبك

ما تطالعه كل يوم من من قضايا واحكام سلام عليك . .
وإلى الأمام ؟ « احمد شلبيه »

واظننى الان - ياخى - عندما اطرق هذا الموضوع ثانية
لا يكون كالجبان الذى يطلب الحرب وحده والزال فى مكان
لا محارب فيه ولا منازل . . . بل ومالى لا اطرقه واكتب
فيه عن الحاضر والمستقبل الوضيئين . كما كتبت فيه - قبلا -
عن الماضى الذى تماوجت فيه الدماء القانية والدموع الهامية
والهرق الثرار ؟

سبحانك ياربى جلالك الحق يظهر وتذكوره الخلائق
عندما تسمع السماء !

فهناك تهبط الرحمت وتعم البركات ويحمل الاشراق والنور
مكان الظلمة والعبوس من الوجوه وتنقلب المآتم اعياداً
والرث جديداً والأتراح افراحا والكل يتراقص نشواناً
ويسجد لرب السماء حمداً وشكرا انا ولا يبقى من مكان لباك
او موضع لشاك او موطن لكثير او حيز لحزين ولا نقع العين
إلا على وجوه مسفرة . ضاحكة مستبشرة فى الحق - ياخى -

اننى لم اشعر بأذى من يوم جلست مع الجالسين نستمتع إلى
« الراديو » يذيع تفاصيل الانقلاب وإنما كنت أجيب
سائلي قائلاً : « لا عليك . . . إنه انقلاب قام لتنظيم الجيش
بعد أن تفتت فيه الفوضى وإن يهود على أو عليك نفع يذكر
وعندما يحققون للجيش مطالبه سيخلص هذا الضعيف تماماً
كأن لم يكن .

وكذلك لم اشعر بأذى من يوم جلست مع الجالسين نستمتع
إلى « الراديو » يذيع نبأ تأليف « الوزارة » واسناد رئاستها
إلى « على ماهر » وإنما كنت أجيب سائلي قائلاً : « لا تدعش
يا أخى إنها قاعدة حفظناها من كثرة التكرار عن ظهر قلب :
كلما مر اسبوعان . تقال الوزارة الحاضرة واعوانها . وتوزر
أخرى وأذئابها ولا تكاد الأولى تدبر والثانية تقبل حتى تقول
المقابلة المدبرة أنتم السابقون وأنا بكم بعد اسبوعين اللاحقون »
وعلى عادتي جلست مع الجالسين إلى « الراديو » مسترقباً
بين حين وآخر بياناً يفصل ما آلت إليه حركة الجيش غير أنه
راعى أن البيان الذي انطلق به صوت « مذيع الثورة »

في هذه المرة لم يكن موجهاً الى الشعب وانما الى عدو الشعب
ومضي المذيع بتلو البيان التاريخي بصوت خشن قوى تثير زبراته
الوجدان والحمية وتوقظ لهجته من اغوار القلوب عواطف الوطنية
حتى قال : « .. لذلك قد فوضني الجيش الممثل لقوة الشعب
ان اطلب من جلالته التنازل عن العرش ... على ان يتم ذلك
في موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم .. السبت
الموافق ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ والرابع من ذي القعدة سنة ١٣٧١
ومغادرة البلاد الساعة قبل السادسة من مساء اليوم نفسه والجيش
يحمل جلالته كل ما يترتب علي عدم النزول عن رغبة الشعب
من نتائج » ولحظةئذ عرّتني انتفاضة جارفة وزخر فؤادي
بسعادة ما شككت ساعتي في انها لو قسمت علي كل من وما في
العالم لوسعتهم جميعاً واعتملت في نفسي انفعالات مختلفة واحاسيس
متضاربة ارغمتني ان اتخلي عن تحشمي ووقاري واقفز جائراً
اذا فقد استيقظنا من رقدة العدم وقريباً قريباً يلتئم الخلل
ما دمنا قد برأنا من علة العلل وما بقيت الا دما مل وبثور ضئيلة
ان تلبث حتي تدمل بدوام العلاج ...

ومضت الأيام .. ليل يعسس .. وصبح يتنفس
وموكب النصر ماض يسحق في سبيله الظلم العتيق ويزهق الباطل
ويحق الحق . ودأبت الصحف « والراديو » على أن تسمعنا كل
جديد طريف . وكان إلغاء الرتب والألقاب بداية برنامج كبير
لأعمال كبيرة وإلى هنا كان « القائد نجيب » قد عاد بجنوده
إلى ثكناتهم ووقف عن كשב يرقب « على ماهر » يصوغ قرار
تحديد الملكية الزراعية . ويؤلف لجان التطهير وتنظيم
الأحزاب . حتى انتهى : ولم يبق إلا أن تخرج القرارات إلى
حيز الوجود ..

ولأنه لما يستدعي العجب حقاً . ويشير الاستغراب والدهشة
أن نجد جماعة الاقطاع وقد رأوا الواقعة على قيد خطوات
منهم يصيرون « بالقائد نجيب » : توقف .. فالدين الإسلامي
يحرم تحديد الملكية .. بالله .. بل ويا للعجب العجيب
الدين من أين ومتى - بالله - عرفتم الدين وليس فيكم من يحفظ
الفاتحة ؟ .. الدين . (هل اتبعتم إمامه ؟ هل احترمت نظامه ؟

هل نفذتم أحكامه ؟ هل حلتكم حلاله وحرمتكم حرامه ؟ . هل
فيكم من تمكنه الإجابة ؟

وترفع الصيحة العسكرية الجافة: يا عبيد المال والطين امثلوا
وأخيراً يغفر الإقطاعى فاه . وتوسع حدقتاه . ويتحول
إلى شبه مجنون ذاهل . ثم لا يمالك أن يلقى برأسه بين راحيته
ويروح فى صمت كصمت القبور وليت شعري ماذا يمالك لنفسه
أن يصنع بعد أن استجابت السماء . فانتكث قتل دولة الإقطاع
وتقوض بنيانها . وعصفت بها . قوة الرب القوى المتين . بل
بعد ما جاء الحق وزهق الباطل ؟ .. إنها نبوءتى

مأساة

أى أخى وزميلي : عندما تنتهى من قراءة هذه المأساة
لاريب أنك سترمينى بالخيال الجامح ، والفكر الشارد
وذلك لأن غالبية كتابنا قد عودونا لونا من القصص لا يتعدونه
إلى غيره وضرباً من الروايات اتحدت فيه الفكر . واختلفت
الاساليب والالفاظ .. والحق - يا أخى - أن فى الواقع المرير
مافاق خيال الشعراء . ولا ينبئك عن ذلك مثل واله .. عان
جريح . تلظى بملات الحدثان .. وشب فى واد من الاحزان
ومأساتى التى أسوقها اليك . مأساة أخ وزميل . ربطتنى به رابطة
الزمالة الكريمة . ووحدتنى وإياه آصرة الاخوة فى الله ..
ومر عام دون أن نلتقى وفى يوم ما . وفدت إلى منه رسالة بلغنى
فيها أنه يئن من وطأة المرض . بل أنه يعانى سكرات الموت

ويقاسى غصصه . وأنه يتلقى علاجه لدى طبيب بمدينة (٠٠٠)
فوافيته هناك ؛ وألفيته مسجى على فراشه (كالفنن الزاوى
نحو لا ؛ وكالمغيب اصفراراً) وشهد الله أنه ما جال بخاطري
- ولم يكن ليحول - أن القدر سيقذف به - فى غير هوادة - بين
مخالب المنون وأظفاره ؛ فيطوى شبابه الورىف ؛ ويدعه أغوار
الرمس ؛ بعد أن مثل معه أبشع مأساة !

والآن - يا أخى - أسطرها لك ؛ وعيناي تهيان ؛ والدمع
يتقاطر من مقلتي على الصفحة - بين يدي - فينديها ويمضى قلبي
على متنها وله صرير حزين ؛ كصوت الملتاع يبعث الزفرات ..
والشجن يدر العبرات !

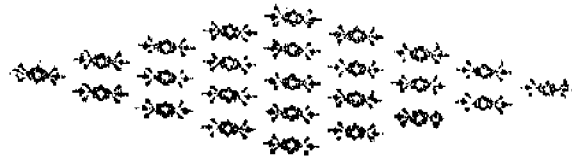
وسأسرد عليك - أولاً - مقدمة يقتضيها سوق الحديث ؛
على أن أترك (جلال) يقصر عليك بعدها مأساته !
(أى جلال : نم قريراً وصاحبتك ؛ فما زلت أذكرك
وأستمطر لروحيكما - معاً - شأيب الرحمة ؛ فلقد كنت
قدوتى :

وكانت في حياتك لي عظات

وأنت اليوم أوعظ منك حياً

فاليك في كذب الله قصتي كما ، وإلى لقاء قريب في هذا

الكنف الكريم ..)



توفي أبوه بعيد مولده . فتربى بدون أب . في رعاية عمه
« العمدة » وكفالة والدته التي ما كاد يتخطى في كنفها سن
الخامسة حتى رحلت عنه بدورها . سالكة سبيل من غير ..
والحقه عمه « بالكتاب » أسوة ببقية نساء القرية . وأفسح له
« في الدوار الكبير » وأوصى به زوجته خيراً . وأغدق عليه
من فيض حنانه ورأفته . وأحله من قلبه مكان الابن لا سيما
وأن زوجته تلك العقيم لم تنجب له ابناً ولا ابنة ولم يكن
« جلال » ذلك الفتى الصغير اليتيم يرهب شيئاً أو يخافه . قدر
رهبته وخوفه من زوج عمه . هاته التي قد حرمها القدر أغلى
وأشهى ما تلشده وتشتهيه زوجة مثلها في مقتبل العمر وميعة
الصبا ورغد الحياة .. ! فصبت على القدر نغمتها ممثلة في شخص
« جلال » تهديداً ووعيداً . وضرباً وركلاً . ولقد كانت الغيرة
تنهشها نهشاً كلما رأت زوجها يداعب الصبي أو يقبله ملاطفاً
على أن الصغير ما كان يجراً على إطلاع عمه على مدى ما يقاسيه

منها من عنت وتعذيب . خاصة وأنها قد سكبت في أذنيه
الصغيرتين أن عقاب ذلك لا يقل عن الذبح بالسكين ..

ونشأ « جلال » . ونشأت في صدره من جراء ذلك مرارة
كانت تنضح على كل ما يصدر عنه أو منه من سلوكه في الحياة
وشب في واد من الأحزان لا نهاية له ؛ وليس من شيء يدلك
على ذلك قدر صمته العميق ؛ وعينيه الساجتين الزاخرتين بالحزن
والألم ؛ وابتسامته تلك التي كانت لا تفتأ تقطر جوى وعذاباً !

وإنه ليشعر بالراحة طالما هو خارج البيت الكبير بين
جدران « الكتاب » الصغير ؛ أما في البيت فإنما هو في ججم
مستعر ؛ لا يعرف للراحة أو الإمن أو الاستقرار طعماً اللهم
إلا في تلك الأوقات التي كان يجد فيها عمه جالساً تحت شجرة
من أشجار الحديقة الواسعة الملاحقة « بالدوار » يحشى القهوة
ويرتل الأذكار على حبات مسبحة الطويلة أو يقطع الوقت
في الحديث مع « الشيخ حسين » إمام المسجد « والحاج سليمان »
تاجر القطن المعروف ؛ فيهرع إليهم ويستمر معهم جذلاً

بمداعبتهم له أو يلهو بتسليق الأشجار من حولهم ؛ أو قذف
الطيار بالحصى أو العبث بالزهور وذات أصيل . وفي جلسة
كهنه الجلسات ؛ انتظمت « العمدة » والإمام « الحاج سليمان »
كان موضوع حديثهم يدور حول (جلال) الذى احتفلوا
بختامه القرآن ليلة أمس

قال الإمام . عند ما رأى (جلال) مقبلاً عليهم : (أذكر
أنك قد طالما حدثتني (يا حضرة العمدة) عن رغبتك الملحة
فى أن تلحق (جلال) بالأزهر حاملاً ينتهى من حفظ القرآن
فهل يا ترى ما زلت عند وعدك ؟)

فأجابه (العمدة) بعد أن رشف من (فنجان القهوة)
رشفة : (هل عهدت منى خلب الوعد (يا شيخ حسين) ؟ .
ثم أردف (والله إن هذا الولد ملك على شغاف قلبى ، ولستم
أود أن أراه قبل أن يوارينى التراب عالماً جليلاً يزيد من قدرنا
بين الناس)

فقال (الخاسر سليمان) فى لهجة من يشى على معروف :
(جزاك الله كل خير) (يا حضرة العمدة) وأطال له ولنا بقاءك
ولا حـرمه رعايتك وبرك : (ثم اعتدل فى جلسته ؛ ونشأ
يتحدث بلهجة من طرأ له أمر : (لعلك تعلم أننى ألحقت ولدى
حلوى بالمدرسة الابتدائية منذ العام الماضى .. والحمد لله يمكنه
(وجلال) أن يعيشا سوياً فى مسكن واحد) .. وبر العمدة
بوعده ؛ ومضى (جلال) جاداً فى الدرس والتحصيل . فأبدى
نبوغاً ؛ وأظهر تفوقاً امتاز بهما لدى أساتذته ؛ ودمائة خلق ؛
وطيبة قلب وصفاء سريرته وروح شفافة ، جعلته يعيش فى قلوب
زملائه وأترابه ، أولئك الذين قدسوا فيه الصمت والحزن آه ..
يا لهذا الصوت الحبيب .. ليتك كنت معى يا أخى وقارئى
لحظتئذ كان صوت (جلال) ذلك العذب الشجى الذى يمزق
نياط القلوب ؛ ينفذ إلى أغوار فؤادى قائلاً : (ومضينا - أنا
و (حلوى) نحـرز النصر فى كل عام ؛ ونحوز قصب السبق
فى كل امتحان هو فى مدرسته وأنا فى معهدى واجتزنا سوياً

مراحل الطفولة وبدأنا مرحلة الشباب ؛ إذ كان في مثل سنى
وكبرنا ، وكبر في قلبينا إخلاص كل منا للآخر ، وكنا لا نكاد
نفترق خاصة في (عطلة الصيف) في القرية ، إذ كنت دائماً في
مسيب الحاجة إليه ، ليسرى عني ، ويرفع عن كواهل تلك الاحمال
من الالم ، الذي لم يكن ثمة من يعرف مصدره سواء ولا ريق
- كذلك - بين يديه فيض عبراتي ، ومر شكاتي من زوجة عمي
تلك التي أضحت تشعرني من طريق غير مباشر بأنني عالة على عمي
الذي لولا ما وجدت من أعتد عليه في الحياة ، وأن والدي كان
قد أتى علي ما يملكه من الارض بيعاً ؟ قبل أن يموت - أضحت
تشعرني بذلك شاباً - بعد أن استحال عليها ما كانت تصنعه في طفولتي
وكان (حلمي) يعزيني ويواسيني ، لذلك فقد لا أحجم
و أتردد في أن أضع بين يديه كل ما تملكه يداي من نقود
- في المدينة والقرية على السواء - إذ كان دائم الشكوى لي من
والده : زاعماً أنه يرض عليه بما يكفيه ويسد حاجته ، متهماً
إياه بإدمان الخمر ، وتعاطي الخدرات مدعماً تهمة بتعثره

فى سيرة الدراسة ، و تفوقى عليه حتى سبقته بعام ، بعد أن
كان يسبقنى بعام ، وكذلك كنت بدورى أعزیه وأواسیه ،
وكم من مرة اندفعت إلى أبيه أقسم له الإيمان المخرجة ، أن ابنه
برىء مما يرميه به ، براءة (الذئب) من دم يوسف ، فكان
جوابه لى ، لا يختلف فى كل مرة عن قوله : (أنت كذاب
(يا شيخ جلال) لأننى رأيتك يكسرع الحجر ، وينفث دخان
(الحشيش) رأى العين .. مرات ومرات ، فلا تحاول أن
تخدعنى ، وأمسك على نفسك عناءها .. !) وكنت أعود
أدراجى يائساً ، حتى أسر لى (حلى) ذات يوم أنه يعتزم
أن لا يواصل دراسته ، وأنه سيلتحق بوظيفة يعيش على راتبها
وكان مصراً على ذلك إصراراً ، غير أننى استطعت أن أثنيه
عن عزمه ، بعد أن اتفقنا على أن أضع كل ما يصلنى من نقود
- إلى جانب ما يصله - تحت تصرفه ، وهكذا واصلنا الدراسة
ومضى عام .. ووليه عام آخر .. وفرغت من الإمتحان
واضطرت أن أخلفه فى المدينة ، وأرحل إلى القرية حتى

ينتهى من امتحانه الذى كان قد بقى لحلوله شهر وأيام ..
ومن القرية مضيت أبعث إليه بكل ما يقع لى من نقود
حتى فرغ من امتحانه وعاد إلى القرية

واصطحبته ليلا إلى حيث اعتدنا أن نأخذ مجلسنا على ربوة
بشاطىء النيل . تنمو عليها شجرة مورقة . تشبهه - إلى حد بعيد -
مظلة كبيرة . وما استويننا جالسين حتى وجدتني أهمس له مشيراً
إلى النيل : « أترى - يا أخاه - إلى الصفحة انعكست عليها
أضواء القمر الندية ؟ .. يا لسحر الليل ! . والله لولا ما يتخللها
من التموج والتكسرات ما شككت في أنها مرآة من الفضة
مصقولة .. ناهيك إلى ظلال النخيل والأشجار لدى الضفة
المقابلة . وقد انعكست - هي الأخرى - على الصفحة المرتعشة
فبدت كأنها العذارى وردن الماء مع الليل . ونضضن ثيابهن .
ونزلن عاريات . فطالعتن عين سار فوقفن مضطربات حياء
وخجلا .. وأعجبا : كأننى قبل الليلة كنت فى عمى عن تلك
المعاني الساحرة ! »

هكذا وجدتني أهتم له بوصف المشهد أمامي . في طلاقة
لم يتخللها تلحيم : ووجدته يرد في دهش : « ويحك (يا جلال)
إنك الليلة قد تبديت لي في صورة الشاعر الحالم . وعهدى بك
- دائماً - إما شاك أو باك . فما الذي طرأ يا ترى ؟ إن صدق
الحدس فإن ما بينك وبين زوجة عمك تحول من خصام إلى
وئام وحرب إلى سلام . »

قلت : « وليس ذلك فقط بل ودعت الهموم إلى الأبد »

قال : « ومن متى ؟ »

قلت : « منذ شهر . شهر فقط »

قال : « أتقبر هموم ثمانية عشر عاماً في جوف شهر ضيق

صغير ؟ في الحق أنه منطوق لا يستساغ »

قلت : « بل ستستسيغ منطوق عندما تعلم أني (وجدتتها) ! »

قال : « ومن هي التي وجدتتها ؟ »

قلت : « حلم نفسي ! »

قال : « ومن تكون ؟ »

فقلت : « أخت روحى ! »

قال : « ومن تكون ؟ »

قلت : (هناة قلبى !)

قال : (ومن تكون ؟) قلت : (ضالتى)

قال - ضجراً - : (ومن تكون ضالتك هذه أيها الحالم ؟)

قلت : (إنها .. (سمية) !)

ومضيت أسرد على مسمع (حلمى) كيف غادرت المدينة

بعد الإمتحان: ووصلت القرية. وتوجهت من فورى إلى البيت

وعرجت على الحديقة عندما وجدت عمى جالساً وبرفقته رجل

آخر غريب يرتدى الثياب العريية ويطلق لحيته : فسلمت عليهما

واستأذنت عمى فى الإنصراف لاستبدال ثيابه . غصير أنه

استوقفنى وبدأ يقدمنى إلى الرجل الغريب قائلاً : (هذا جلال

بن المرحوم أخى طالب فى الأزهر) ثم أشار إلى الرجل وخاطبني

(وهذا والدك الحاج سلام الشاذلى) تاجر من فلسطين من قرية

(بيت لحم) وقد غادر وطنه خلال الحرب . وشرفنا بنزوله

علينا . وهو يعتزم الإقامة هنا بيننا ومحاودة الإتجار وتأملت
الرجل الذي كانت سيما الحزن الصامت بادية في ملامحه وتقاعل
وجهه ولحيته التي وخطها الشيب نخلعت عليه مسحة من جلال
ووقار . تأملته في تقدير وإشفاق وكسرت مصافحته منحنياً
محيياً وانصرفت . في عجلة . مزعماً استبدال ملابس المغيرة
والإسراع بالعودة اليهما في الحديقة لأسمع من الرجل قصص
الكفاح والمكافحين في فلسطين وقصصت الى حبرتي على الفور
ماراً بحجرة الجلوس دون أن أنظر داخلها أو أعرج عليها فلقد
عرفت في الصوت الذي كان ينبعث منها أنه صوت زوجة عمي
ولم تكن بي رغبة الى التسليم عليها أو حتى مجرد رؤياها وفي
دقائق معدودة استبدلت ثيابي وخرجت من الحجرة مسرعاً
مجتازاً البهو الطويل الى الحديقة غير أنني اضطررت أن أقف
قبالة حجرة الجلوس ، عندما رأيت زوجة عمي قد وقفت ببابها
وحلقت على حافتيه بذراعيها، وهتفت بي . لأول مرة في عمرها
الطويل : (أهلاً وسهلاً .. كيف الحال) يا شيخ جلال ؟

وبحركة لا شعورية دنوت منها وجعلت أتأملها مليا ، أنها زوجة
عمى .. هى بعينها .. رباه : هل هذه حقيقة ، أم أضغاث
أحلام ؟ ، أنها تناديني (يا شيخ جلال) .. وتسالني عن
الحال ، وتحتفي بمقدمي وترحب ، لالا .. هذا محال !!! لا بد
وأن بي مسا من جنون أو خيل لا بد وأنها تسخر مني
أو تهكم بي ..

لكنها سرعان ما أخرجتني من حيرتي وتساؤلي بيدها التي بسطتها
الى فجأة وتلقت بها راحتي هاشة باشة ثم جذبتها عندهما انحنيت
عليها أقبلها ، وهممت (أستغفر الله) ووقفت أمامها ناصبا
قامتي حانياً رأسي منتظراً أمرها لي بالإصراف ، على أنها بدلا
من أن تصرفني تنحت عن مدخل الحجرة وقالت (أدخل
ياشيخ خلال) قلت (معذرة !! انى عمى والضيف فى انتظارى
بالحديقة) فقالت (أدخل فلن تمكث الارثما تسلم على الضيفة)
وولجت باب الحجرة ، فإذا أنا أمام نموذج صادق للجمال الرائع
الحزين فتاة لا تتجاوز ربيعها السابع عشر فى سيمائها حنان الطبيعة

وفي عينيها صفاء الشريعة وفي خديها حمرة الورد :: وفي خصلات
شعرها التي نفرت من تحت الحجاب : الذي غطت به رأسها
ولفته على منكبيها بريق الذهب توحى قسما لها بعمان يفنى البيان
ولا يترجها يارب :: انها ذات الصورة التي أودعتها فؤادي
منذ افتقرت إلى الحنان واشتدت حاجتي الى الحب : بل هي
ضالتي التي جعلت لها الطبيعة صوراً في قلبي ، وجعلت منها
إنساناً لعيني ::

ونفضت لاستقبالها في خفر وحياء : فمدت اليها يداً مضطربة
تلقيتها بيد لم تسكن بأقل اضطراباً : فما احتوت يدي عليها حتى ضغطت
عليها ضغطة أودعتها كل ما جال في نفسي من مشاعر وأحاسيس
فرفعت رأسها ، فقدرات في عينيها الحاليتين تجاوب شعوري
وتلبية ندائي ، وتراجعت بظهري ، دون أن أغض عنها طرقي
حتى عثرت بالمقعد فهويت عليه وجلست :: وأنا لا أستطيع
أن أصرف ناظري عن هذه المعاني والمثل ، تلك التي قد طالما
نشدتها ، وسكنت في البحث عنها كل اتبعاه ، ضاربا في متاهات

الحياة ، وأخيراً هاهى .. قد هبطت على ، ومثلت أمامى واستقرت
حيالى ، وجلست فى قبالتى

وساءلت نفسى وأنا ما أزال فى غشيتى من سناها وروعى من
بهاها ، ترى من هى ؟ وأين كانت ؟؛ وسرعان ما انبعث صوت
زوجة عمى ، التى أخذت مكانها بجوارها يقول : (هذه سمية)
بنت (الحاج سلام) الجالس مع عمك فى الحديقة) فتعلمت
الفتاة فى مجلسها وقالت فى حياء بلهجة عربية كلهم أيتها : (أجل
أنا (سمية) ابنة (الحاج سلام)

وذكرنى صوتها بصوت والدتى الحبيب ، وكدت أصبح فى
أحزانى لولا أن انبعث صوت زوجة عمى تتمم مابدأت ،
وهذا (الشيخ جلال) بن المرحوم شقيق (العمدة) طالب فى
الازهر ، وقد حضر لقضاء عطلة الصيف) فرفعت (سمية)
نظرها الى ، وتناجينا باللحاظ والقلوب فى أقل من اللحظة ،
ولمحت على وجهها الحزين شبح إشراقة فرح وارتياح ، وعلى
شفهتها الورديتين طيفاً لا بتسامة طمأنينة ورضا - لمحت هذا الشبح

وذلك الطيف - فأيقظا في نفسي الأمل ، وملا فؤادي سعادة
ونعيا - ومكثت لأملك لناظري عنها مصرفا - حتى أغضت
حياء ووجدتها تختلس الى النظر من خلال اطرافها اختلاسا
فاطرقت بدوري لأدري حياء أم من مهابتها اطراقا وحينما
بدأت أختلس اليها النظر من خلال اطرافى كانت هي الأخرى
تهم بفعل ذلك فكانت « مناورة أو اصطدام » أرغم كلانا على
الابتسام .. وأخيراً استأذنتهما - على كره - وانصرفت الى عمى
(والحاج سلام)

وبحديثى الى الرجل ، وحديثه الى ، عرفت أنه تعرف الى
عمى مصادفة فى القاهرة من سنوات والتقيما هناك بعد ذلك
مرارا ، فقد كان كثير القدوم اليها بحكم أعماله التجارية حيث
كان يورد سلعا من فلسطين ويستورد أخرى من القاهرة وكان
يما قاله لى الرجل ضمن حديثه : (وبينما كنا - أنا وزوجتى
وأبنتاى - جالسين الى الموقد ذات ليلة قررة نعقب بحديثنا على
أصوات الانفجار وأزيز الطائرات ، وهلمقات المدافع تلك التى

كانت تهز بنا البيت هزاً . كأنها الزلازل المخطمة . وترج زجاج
النوافذ رجا . كأنها العواصف الهوج . اقتحم علينا البيت
أربعة من اليهود . وهاجمونا حيث كنا جالسين . ففرعنا جميعاً
وجاوت زوجتي أن تصيح فما هالني من أحدهم إلا أن تقدم
منها . وركلها بقدمه في بطنها ركلة أسقطتها تتلوى . ثم .. لم
تلبث إلا أن فقدت الحراك . فأنحنى عليها وانتزع من جيدها
ما به من حلي . وأنحنى آخر . فنزع قرطيبها من أذنيها تنزعاً .
بينما كان الثالث قد أُلجأني إلى ركن من أركان الحجرة . ومن
خلفي ابنتي « سمية » وقد عقدت ذراعها حول وسطى . محتمة بي
ووضع ذؤابه « سنكيه » على قلبي يحذرني الحراك . ويستخر من
ضراعتي إليهم وتوسلي أن يرحموا شيخوختي وعجز ابنتي .
على حين كان الرابع قد انفرد بابنتي الكبرى « شامة » في الركن
المقابل . وانتزع منها كل ما كانت تتحلى به من ذهب وماس .
وحاول بعد ذلك أن يغتصبها أثمن وأغلى ما تملك الفتاة فما أن
هم بذلك حتى استجمعت قواها . وأودعتها كفها . وصفعة

صفحة أطارت من عينه الشرر . وأشعلت في رأسه ضرام الغضب
فاستل « سنكيه » وأجهز عليها . وبقر بطنها . فسقطت بدورها
حاملة أمعاءها بين كفيها .. فتحول عنها إلى « الدولاب » الذي
كان على يمينه . وحطمه بغية العثور على المال . فلما لم يجد به
مالاً مزق ما به من ملابس . وبعثرها في أرجاء المكان . وغادر
الحجرة يتبعه آخر . إلى حيث طافا بغرف البيت الباقية . محطمين
كل ما وقع تحت أيديهما . وكافة ما صادفهما . وبقي الآخران
يتناوبان صفحي تارة وركلي أخرى ووخزي بالسنكي ثالثة
يحملان بذلك على أن أدلهما على مخبأ مالى . ولما كلا من ضربى
أخذ أحدهما يفتشنى . فما عثر على شيء لأننى كنت قد خبأته فى
مكان من ثيابى ما كان ليتجه اليه تفكير أذكى الأذكاء وأخيراً
وبعد أن أحالوا عامر البيت خراباً ودمروا به تدميراً إقتادونا
ـ أنا « وسمية » ـ إلى الخارج تاركين جثة الزوجة والإبنة ملقأتين
على أرض الحجرة محطمتين ككل ما كان باليت . وساقونا
يتقدمنا اثنان منهما ويتبعنا آخران قد ثبت ـ كلاهما ـ

« سنكيه » في ظهري وظهر « سمية » وسرنا مستسلمين لا يستطيع
أحدنا مقاومة أو حراكا ولا يملك أحدنا إلا دموعا تسترسل
من عينيه في هدوء وصمت عميقين مريرين بين الصيحات والبصرشات
والعويل الذي ما كان يخمد في بيت القرية إلا لينبعث من
الآخر فلقد هاجم اليهود البلدة في تلك الليلة القائمة النحسة
وبدنا نحن نسير على حالنا هذه إذ قابلتنا امرأة فارة من بيتها إلى
بجاج الشارع عارية هالعة تولول صارخة : زوجي : أولادي «
فتلقاها أحد السائرين أمامنا برصاصة من قنافته أسكتتها إلى
الأبد : وضربوا بنا في الصحراء حيث كنا لانسمع إلا الطلقات
الصادرة من القرية وأنين الرياح

ونجأة توقفوا بنا واستدار أحدهم المتقدمين إلى « سمية »
واحتواها بين ذراعيه عنوة : ووقع بها على الأرض ، فهممت
أتحفز إلى الانقضاض عليه : وما كدت أفعل حتى كان الثلاثة
قد أحاطوني وثبت كل سلاحه على موضع من جسدي وصاح
أحدهم بي : « إياك يا كلب » لن نقتلك حتى ترى بعينك كيف

ينال كل منا ما يشتهي من ابتلاك بالتوالي ؟ ووقفت أتابع
الوحش بعينين هامتين وقلب يكاد يثب من مسكنه من هول
التهجيعة وجملت أنظـره وهو يحاول جاهداً أن ينضى عنها
سترتها بينما راحت تقاومه بكل ما أوتيت من قوة ومهما يكن
فإنها فتاة ؛ وهل يمكن الفتاة أن تصد رجلاً ؟ وأوشكت
قواها أن تهـن وتكف عن المقاومة وأمسك الوحش بسترتها
وفي نفس اللحظة حملت إلينا الريح صوت سيارة ثم ما لبثت
أن تبينتها كما تبينها الوحش وكانت تدنو منا في سرعة الطائرة
فوجدت الثلاثة أداروا إلى ظهورهم وأطلقوا سيقانهم يسابقون
الريح وفي نفس اللحظة أيضاً دب في جسدي ما فقدته من
القوى تحت وطأة التعذيب فأنحيت مسرعاً وتناولت مديـة الوحش
التي كانت قد سقطت على الأرض بجواره أثناء محاولاته مع
« سمية » ورفعت بها وأودعتها ظهره حتى مقبضها فانقلب على
جنبه وسكت تماماً كزوجتي وابنتي والمرأة التي أسكتها برصاصه
وتحولت عنه إلى « سمية » وكانت في غيبوبة ووسدت رأسها

صدرى . ونشأت أحرك أطرافها حتى أفاقت . ووصلت اليها
السيارة . وتوقفت لم أرانا في هذا المكان الموحش . وهبط منها
ثلة من الجنود . عرفت من لهجتهم وهياتهم أنهم مصريون
في طريقهم إلى « بيت لحم » ليجلوا عنها اليهود . الذين هاجموا
وقصصت على الضابط قصتي . فأخبرنا أنه من حسن حظنا أن
سيارتهم الوحيدة هي التي سلكت هذا الطريق ثم وكل بنا
جندياً وأوصاه فأنفدنا إلى محلة بعيدة عن هجمات اليهود فمكثنا
هناك حيناً . ولقد أضحي بغيضاً الى نفسي . ثقيلاً على قلبي . أن
أرجع إلى القرية التي قتلت فيها زوجتي وابنتي على مرأى مني
وبين يدي فيممت مصراً ، وقصدت عمك - صديق القديم -
وهأنذا ؛ » ثم صمت الرجل ، واستهلت عيناه بعبرة مدارا

انقلبت إلى فراشي قبل منتصف الليل بساعة وركزت
ناظري في الجدار الذي يفصل بيني وبين « سمية » وأخذت
أستعرض في ذاكرتي حوادث المأساة التي صردها علي الرجل
بدموعه ؛ زوجته راقدة جثة هامدة ؛ وابنته إلى جوارها مضرجة

في دماها وأخيراً « سمية » ملقاة على الرمال تجاهد وحشاً ضارباً
يحاول أن . . . غير أنى حمدت الله أنه لم ينل منها بغيته وإذا
فهذا هو السر في تلك المسحة من الألم البادى على وجهها حمداً
لله وشكراً للطبيعة التي توقع الطيور على أشكالها ولا تؤلف بين
النقيضين هي ولهي وأنا عان هي جريح وأنا مثلها وإن تضاربت
الأساليب وتنوعت الطرق كلانا ضارب في عالم من الأحران
وكلانا ذاق ملهات الحدثان هي التي لا تعرف سوى لغتي وأنا
الذي ما عرفت غير لغتها فيسير علينا أن نتفاهم تواسيني وأعزيها
وأتوجع من أجْلِها وتبكي من أجلي وهل يشتف العزاء من غير
قلب حزين ؟ وتذكرت ما كان أمر زوجة عمي معي وساءلت
نفسى : لماذا غيرت معي سيرتها ؟ أتراها تطرق إلى قلبها الندم
على ما سلف منها فبدأت تكفر عنه ؟ أم ماذا وزخرت رأسي
بشتى الأسئلة من هذا القبيل وبقيت في فراشي مسهداً أبحث
عن مفتاح ما استغلق على من أمرها وأنشد مفك ما قد اعتاص
على من الغازها المبهمة وتطاول ليلى وامتد وامتنع على المنام

وجافاني الكرى وأخيراً نهضت من فراشي على شقة شقة العصفير
تمجد بارئها وتعزف الا لحان محتفية بمقدم يوم جديد وخرجت
إلى (دووة المياه) أتوضأ لصلاة الصبح وفي سبيل إلى هناك
استوقفتي صوت ملائكي صادر من حجرة (سمية) عذب
النغمة فيه شجي ورقة وضراعة وتبتل هاديء في خفوت كسأفه
ينبعث من ثنايا القرون السحيقة وحق السماء :

لو تسلي به حديثه رزم لشفى داء صدرها الحران
كان الصوت يضرع قائلاً : إهدنا الصراط المستقيم صراط
الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . توج
الليل في النهار وتوج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت
وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب
الله اكبر . .

موسيقى لها جمال وروعة ، وتأثير في ذات النفس ورهبة
لولا خشيتي من أن تطالغني عين وأنا في وقفتي هذه بياها فتظن
بي الظنون لظلمت واقفا به أصغى لهذه الموسيقى العذبة الحنون

توضأت و أتممت صلاتي ، و بقيت جالسا على (السجادة)
 مطرقا برأسي أستعيد من مسامعي لنادة ماسمعت من العذراء
 الطاهرة ، و نهني طارق خفيف على باب حجرتي ففتفت :
 (أدخل) و دخل الطارق فعرفت فيه (مرزوق) الخادم
 الصغير و قال وهو يغلق الباب خلفه : (صباح الخير يا شيخ
 جلال) ولم يمهلي حتى أرد عليه تحية الصباح ، فواصل كلامه
 متسائلا (هل أحضرت لي معك (الدفية) التي وعدتني بها ؟
 لقد خجلت أن أسألك عنها بالأمس لأنك كنت بادي التعب
 من السفر فاومأت له بالجلوس ريثما أتيتته بها فتناولها و فض
 عنها لضافتها و لفها حول عنقه و طرح طرفيها على منكبيه و قام
 يخطو في الحجرة جيئة و ذهابا فرحاضوها ثم دنى مني و قال
 بلمحجته البريئة (ربنا ما يحرمنا منك) فلاح لي أن أسأله عما جد
 بالبيت علني أستطيع أن أعرف بعضا مما أريد قبدأته بقولي :
 (هل راقتك (الدفية ؟) (يا مرزوق) فاجاب (كثيرا إن

أحد من عيال البلدة لا يملك مثلها . واغتصمت فرصة فرحة
فسألته : « أما سمعت زوجة عمى تتحدث عنى ؟ » فأجاب :
« سمعتها تتحدث عنك لو الدتها . وكانت هنا فى زيارتها من
أيام » فسألتها عما قالت . فقال : « لقد أسرت لو الدتها . وهى
تشيعها لدى الباب الخارجى أنها تدرك مسدى شغف « سيدتى
العمدة » وتوقه للخلف . وأنها قد أحست منه ميلا إلى سيدتى
« سمية » منذ حلت هنا . وهى تخشى أن يتزوجها بغية أن تنجب
له أولاداً . لذلك فهى ستعمل على زواجك أنت منها » . وهكذا
كما ترى وجدت فى كلام الغلام مفتاح ما استغلق من أمر زوجة
عمى . وحل ما اعتاص على من ألغازها المهمة . ومهما يكن من
أمر . فإن هذا فى صالحى !!!

وسألتها أخيراً منذ متى حل هنا « الحاج سلام ؟ » فأجاب
منذ تسعة أيام . هو وسيدتى « سمية » ضمتنا جميعاً مائدة الإفطار
وأخذت مكانى إلى يمين (سمية) وجعلنا خلال الطعام نتبادل
الحديث الصامت بالنظرات الحسنية وانتهينا من الطعام وهذا

كل ما دار بيننا

وفي أصيل اليوم نفسه تركني عمي (والحاج سلام)
في الحديقة . وانصرفا لزيارة والدك (الحاج سليمان) في
منزله ورحلت أتنقل وحدي في رحبات الحديقة . ولم يكن إذ ذاك
يطوف بمخيلتي غير صورة (سمية) الحبيبة . وانتهى بي التنقل
إلى ركن قصي . تعانقت في شجرتان من شجرات الياسمين .
وأصبح ما بينهما خلاء فكأنه الأجمة . وولجتها وانطرحت على
ظهري وجعلت أعبت بوردة بين أنامل . وأرهف فيها بصرى
ولم لا ؟ . ألسنت أطالع وجه (سمية) في تكوفها وثناياها :
ووجدتني عن غير عمد أترنم بقول (بشار) :

فكأن لفظ حديثها . قطع الرياض كسين زهراً
وكأن تحت لسانها . هاروت يتفث فيه سحراً
خوراء إن نظرت إليك سقتك بالعينين خمراً

وهناك انبعث صوت عذب كأنه هزيج الطيور . حبيب
إلى نفسي حتى لكانه ذوب جميع القلوب . ولست أدري من
أى ناحية صدر على وجه التحديد . وكل ما أعرفه أنه أخذني
من يمين وشمال . ومن فوق وتحت ؛ وناداني وهو يغمرني
رويداً رويداً : (يالها من محظوظة تلك الوردة ولكن ما بالي
لا أسمع لفظ حديثها ذلك الذي يشبه قطــــــــــــــــع الرياض
كسين زهراً ولا أحس نغمة لحديثها ذلك الذي ينفث فيه
هاروت سحراً ، ولا أرى لها عيين تسقى بهما الصادي خم — رأ
أمن فصيلة الورود خلق الله بشراً ؟) وانتصبت قائماً لحظتها
طالعت (سمية) تقف بمدخل الفرجة ، فمدت لها يدي فشدت
عليها وطفقت تقول مستأنفة حديثها : وعلى ذلك كان الأحرى
بك أن تقول في وردتك هذه العجيبة :

وحديثها السحر الحلال لو أنه * لم يحن قتل المسلم المتحرز
إن طال لم يمال وإن هي أوجزت * ود المحدث أنها لم توجز
شرك العقول ونزهة ما مثلها * البطمث وعقله المستوفر

والحق أن وقع المفاجأة عقد لساني، وخانني النطق واستغلق
علي؛ فما كنت أحلم أن الظروف ستقربنا هذه السرعة؛ فلما
لحظت هي على ذلك دعيتي للسير؛ وانتهينا إلى مقعدين في ناحية
من الحديقة؛ وجلست في تجاهها صامتاً أعيث في الوردية؛ وكأني
أرى في ذلك تخلصاً من ربكتي :: بالله :: ولكن :: لقد هيأت
في ذاكرتي بالأمس ألف صورة وصورة للنجوى التي سأريتها
على مسامعها عند أول لقاء :: ترى أين غابت عنى كل هذه الصور؟
ولم اعتاصت على، وأخيراً فتح على فقلت - بينما أمسكت قلبي
بيدي - : (أتعشقين الشعر يا أختاه؟) وكأنا خلصتها بدئي
في الحديث من غل أو قيد، فانطلقت تجيب : (أجل يا أخى
ولقد طالما صرفني عن دروسى ::)

وعدت أسأها : (هل كنت في مدرسة؟)
فأجابت وقد ظهر عليها الاستئناس بي : (كنت
في السنة الثالثة الثانوية، وكنت أبكر مع الصباح إلى المدرسة
في أول سيارة تمر بقريننا إلى المدينة القريبة، غير أنى اضطرت

أن أتوقف عن مواصلة دراستي حينما بدأت الحرب هناك ؛
 وكنت : (وألفيتها ستمضي في قصتها فأشفقت أن يتطرق بها
 الحديث إلى ذكراها الدامية «ولرب ذكرى جددت حزناً» فقطعت
 عليها الحديث مغيراً دفته بأول ما طرأ على لساني : (يبدو أنه
 من تعلقك بالأدب قد أصبح له في نفسك أثر كبير . لاسيما وأنك
 قد تحدثت عن الورد بما هو أروع مما تحدثت أنا به . معجزة)
 فسألتني في لهجة تشوبها الدهشة : (من هي المعجزة ؟) فترددت
 قبل أن أجيب (.. الورد) . فعادت تسأل في ابتسام
 ودل : (وما وجه الإعجاز فيها وهي وردة كسكل الورد ؟)
 واستخلصت من لهجتها ما شجعتني على الحديث . على أنني كنت قد
 استأنست بها كما أنست إلى . ووجدت الفرصة مواتية فاهتبلتها
 ومضيت أقول (لسمية) بصوت لم يسلم من تهديج واضطراب
 (وجه الإعجاز فيها - يا أختاه - إنها كانت دون الكثير من
 الورد سواها مرتع نفسي ومراد سمعي وبصري ، وريع قلبي
 وسلواي من كآبتي ، وأنيسي في وحدتي ، ما وقع عليها ناظري

لأول مرة حتى قدست فيها الجمال الحزين ، وأخذتني نضرتها
البضنة وما أصنخت اليها سمعى حتى أسكرني أديها الغض ، وما
خلوت اليها حتى آنست منها حاشية رقيقة وناحية خفيفة
ومعاشرة عذبة ، فأكسرم بغيث جاد نبتها وعود حملها ، وكم
تفتح عنها) قلت ذلك وغضضت بريقى فشاهدتها ترفع رأسها
من إطاراقها . وقد تصاعد الدم الا وجنتيها ولمعت عيناها بمعان
متباينة وهى تقول : (فى الحق أنك أنت المعجزة فقلبك كقلب
كل شاعر) مرآة يترامى فيها صور الكائنات صغيرها وكبيرها
يرى الجمال فى كل شىء يتناوله سمعه وبصره ، حتى فى الزهرة
الذابلة ، والنحلة الطائرة ، وفى مدارج النمل والجدث البالى ، فهو
من خياله فى نعمة دائمة لا تنفد ولا تبلى) ألسنت تراك فى آن
واحد قد ترجمت ما اشتعجم على الوردية من نفسها ، وما زخر
به فؤادك من معان ومشاعر ، والله لو أذن الله (للوردة)
أن تبين لك عن شعورها وتفصح عن مكنون خميرها لما وجدت
لها ممدى عن أن تنطق لك بنفس ما نطقت أنت به عنها ، ، بنفس

الصيغة وذات الإسلوب وعين اللهجة الحانية)

وأثمتني لهجتها ، فطفقت أسبح بخاطري وناظري معا في
اللامحدود ، وفجر حديثها - ذلك السحر الحلال - في فؤادي
ينابيع من السعادة لا تفيض ولا تجف ولو نهل منها كل من دب
على الأرض ودرج ، وتراقصت أمام عيني في الأفق ألوان
الطيف السبع . نخلتها الهناءة في ضروب وأنواع ، وتنبهت أخيراً
إلى طول مدة الصمت التي مرت بنا بعد حديثها . فنهضت قائماً
وطلبت إليها أن تطوف بارجاء الحديقة وسرت بمحاذاتها وإن
أوصالى لرجفة ، وبقلبي لروعة ، وفي نفسي نشوة وهبت علينا
إذ ذاك نسمة بليلة ندية ، أضفت على غبطة وخلعت على اطمئناننا
أما سمية فأنها ما تما لكنت أن قالت بصوتها الجمال منقلة طرفها بين
الأفق والفضاء ، والشمس الراحلة تلفظ آخر أنفاسها وقد
بدأت الطبيعة تشق لها في جانب الأفق قبراً ترابه من الذهب .
وينسج لها الأصيل على نوله كفناً من معصفرات الوشى . قالت
: (يا أخى . إن بيني وبين هذه الساعة ود قديم فلقد طالما وقفت

أهتف بها مع الشعراء وأنادى . ولكم ناجيت الله بها وتوسمت
في أعظافها نفحة الدين والحب ، تالله ، إن جلالها ليملاً قلبي
وبصرى وإن جمالها ليستشير عقلى ، وإن حزنها وشجاها ليسترق
لبى ويذيب مهجتي .. تأمل يا أخى حواشى جوها هذه المذهبة
تهفو عليها أنفاس النسيم الندى وانظر الى الشجر كأننى به من
طرب يميل ويميد ونقل طرفك ، واستمع وانصت للأوراق
ترفرف ، والله لكانها قلوب تختلج من هزة الذكر ونشوة
التوحيد ..

في حفظ الله وصونه أيتها لشمس الغاربة .. آه . رحماك
إن جنوحك للمغيب يعض فؤادى ككل شيء يذهب لا بد
وأنت يحزن له بعض من فى الوجود ! قالت ذلك وهوت
بمنكبتها على عامود من سياج الحديقة فما راعنى إلا الدمع ينساب
من ما آقيها فى تمهل وهوادة وهدوء . كأنسياب الكلام من
فمها الجميل وهى تردد جملتها الأخيرة . فقربت وجهي إليها وقلت
« سمية » .. أتبكين . بحسبك يا أختاه وهيا نهود إلى البيت

وتعودنا بهذا أن نلتقي كل أصيل في الحقيقة عند الأجمة
بمبدأ عن الهيون . وما كنا ننترق إلا على أهبة لقاء ووشك
مهاد واعتزلنا عالم الناس . ذلك الذي قام على شهوات التراب
وغرائز الطين إلى عالم آخر دعامته حب وقوامه عفاف ومساكنه
طهر وعماده تفكير في خالق السموات والأرض . واختلاف
الليل والنهار وأسرار الطبيعة كل ذلك في جوف من الحزن
الباسم . أو الابتسام الحزين . ووجدت « سمية » تجرني خلفها
بقوة خفية وإذا نحن نهمل سوبا على تعرف حقيقة الجوهر
الأصيل في الانسان . وهكذا أضحت « الأجمة » مهدي
المقدس أمع إليه كلما أذن مؤذن الاصيل وأجلس إلى « سمية »
فتسرح بروحي في العوالم اللامرئية فتطالعني بأشياء رائعة خلاصة
سابقة في الصمت ولكنها قوية التعبير . ويحها . . . لقد والله
صهرتني معها في بوتقة وخلقتني من جديد . بل أشعرتني بأن
كل ما وعيته في ذاكرتي . ومنجته بأجساس مما وصل إليه
العباقة والفلسفة في كل مكان وزمان ليس إلا قشورا

- لا أكثر ولا أقل - إذا قيس بما حواه محيط المعرفة
اللامدركة . تلك التي كانت لا تفتأ تطالمني بها .

توسى لي بلحظها الساحر الفتان فكأنها تقول : « اتبعني
لنصل الى الجوهر »

رتبت الزفرات وتطلق القنهدات فكأنها تهتف بي : « هلم
انعرف سر الالباب »

ناديتها : « سمية . . . يا أختاه »

فاجابت : « لبيك يا أخى »

فسألتها : « أنامين الليل ؟ »

فاجبتني : « والله ما ليلى بنام صاحبه »

قلت لها . « وعلى ذلك فليس عسيراً علينا أن نلتقي

هنا في السحر »

فقلت : « اعمري أنه مطلب سهل حبيب . كان لك فيه

فضل سبق »

وقبعت في فسراشى مذأويت اليه . وفي هدأة الليل

والهجرة جمعت أضيخ بسمعي : فلا أسمع من شيء غير دقات

الساعة في يدي و نبضات قلبي بين جنبي وأحرق في الساعة التي
قتلتني ابطاء عقريتها أو كاد . الواحدة والنصف . . . ودقيقة
ودقيقة . . . وبعد ثمان دقائق ساءت سبل وأحدث الإشارة
التي اتفقنا عليها فتسمعها وتأتي إلى هذا ما كنت أتمسك به انفسى
آنذاك والكنى اضطربت عندما طرقت سمى الإشارة التي اتفقنا
عليها وعزاني الانتفاض . . . يالها من آفة تأتي أن تقر الهزيمة
أو تعترف بها . . . رأت أنني حزت فضل السبق في اظهار
الفكرة فأبت الا ان يكون لها ذلك في تنفيذها وإيجادها
وغادرت الفراش ممسكا أنفاسي . سائراً على اطراف قدمي محاذراً
احداث ادني حركة . حتي انتهيت الى باب حجرتي الخلفي ففتحت
ودأبت منه الى الشرفة الموصلة الى الحديقة وعلى قاصية السلم
الصغير طالعت « سمية » تشرق بابتسامتها هذه التي مازجها ضوء
القمر . فزادها سحراً وزادته رفقا . فدنوت منها وتنابطت
فراعهما في صمت وهبطت معها السلم الى الحديقة فأنسلنا من
خلال منافذ الشجر ونخطينا احواض الزهر الى « الاجمة » او

« المعبود المقدس » فوجدناها . وبقبضتنا متواججهين ، بينما بدأ ضوء القمر يتسلل أليما في الداخل كدروب النضار وقلت وانا اتأمل في تجاسي « راقب بلال الماء أثوابنا فردت على بقولها « بل جلاتها الدموع ! » فقلت مستغربة « اى دموع ؟ » فأجابت « دموع الملل في جفون الزهور والاغصان »

قلت « وريح للطلال . يدر دموعه على ارض لا تقديس الدموع شأنه في ذلك شأن الباكين من بني الانسان ! » فردت بقولها « بل ويحك انت . . ان لنا في الدموع حياة فحياة الارض من دموع السماء . والبائس والهامي والشحجي هؤلاء الذين يحيمون حياة سادت افقها الظلال الربداء وطغت عليها الظلماء . كلها ليل لا نجمة في سمائه ولا قمر يغير غيراه ولا بصيص من ضياء يحد من حاكمها هؤلاء انما يشقون طريقهم فيها على اشراق دموعهم ويمضون في وحشتها على انبس من صوت تحييتهم وجهديشهم »

فقلت وقد فعل قولها في نفسي فعله « عذار . . . لقد

استتر على هذا المعنى يا حبيبتى »

ولم انتبه الى نطقى باللفظ الاخير الا بعد ان صدر فرفعت
يدي الى فمى بحركة لا شعورية احاول ارجاعه واسكنه قد
سبق السيف العزل فبقيت حائراً مرتبكاً وحسبت انها ستتفاضى
عن لفظتى وتهملها . وانكسرها قالت باسمحة « ان تجردك فى
هذه المرة مخرجاً . لانه ليست معك الآن «وردة» تسمح فيها قواك
وعلى كل حال فعهدى بك ان قلبك اسانك فهل ادخر من
« يا حبيبتى » لفظها ام معناها ؟ » فاطرقت صامتة فاستجشتنى
على الجواب فقلت « هل تغفرين لى جرأتى اذا انا احببتك
الجواب الحقيقى ؟ » فقالت « لك على ذلك » فأجبتها (خذى
ان شئت من الكلمة لفظها وان شئت معناها او خذها بلفظها
ومعناها معاً فذلك مالا يهمنى . وكل ما هناك انى احبك
واحبك من قرارة قلبى !)

فردت وقد شاب لهاجتها حياء (اما انا فلست احبك من
قرارة قلبى فقلت منذعراً (ما الذى تقولين ؟) فأجابت وقد

فطنت الى ذعري وجزعى « نعم ... انا لا احبك من قرارة
قلبي . وافـها تحبك بروحي وفي روحي يوجد حبك اذ اننى
لا اقر العائلين بان الحب مقدره القلب . وايت شعري كيف
يتسع فراغ القلب ذلك الجرم المسادى المحسوس الصغير لهذه
الآفاق اللانهائية التي تخلق فيها الوقائع والاهام والحقائق
والخيالات والأحلام ؟ . طبعى أنه لا يسع كل أولئك سوى
الروح الطائف في طيرانه بكل السموات ! »

فقلت وبنى ما بي « أحبك يا أختاه من القلب وبه وبالروح
ومنها ! »

وهكذا يا عزيزي (محلى) قضيت شهراً وهو كما رأيت
كل أيامه اصبل وكل لياليه سحر فبهتني الله على يد « سمية »
خلفاً جديداً وما زالت زوجة عمى - اللائح - تزكيني لديها
وتطريها لدى - ولست اقرر ان اصور لك مبلغ سعادتها حينها -
ترى (سمية) بالقرب منى - او ترانى بالقرب منها - واظنه
يمكنك بعد كل هذا ان تفهم لماذا طرقت الهموم - راقا
ربما كان ابديا - واضمحيت بواد والانهام بواد - !!

فتمطى «حلى» وتشاءب ؛ وبدأ يكلمنى بعد أن لزم الصمت
طيلة حديثى له : « فقال ؛ ألم أنبئك من زمن بأن الله سيهبك
عن صبرك المديد جزاء حسناً ؟ وسمعت ريثما نظرت فى ساعته ،
ثم أردف وهو ينهض واقفاً : هيا بنا ؛ فلقد كادت الساعة تجاوز
الواحدة والثلاث : وقد أغفلتني نفسى فى غمرة حديثك هذا الطويل
فنهضنا مودعين الربوة ..

وقلت له ونحن قافلين إلى القرية : لقد حل وقت اللقاء
وسأذهب الآن فأجد « سمية » فى انتظارى بالشرقة على ناصية
السلم : وتذكرت أن « سمية » كانت قد كشفت لى عن رغبتهما
فى نزهة فى زورق فى النيل .. فأطلعته على ذلك .. فأبدى استعداداه
لإحضار الزورق فى الليلة المقبلة

جلست فى المساء إلى جوار زوجة عمى فى حجرة الجلوس :
متردداً فى أن أطلب منها السماح « لسمية » بالخروج معى ..
فلما طالعت ترددى قالت : يبدو أنك تريد أن تسر إلى بشىء :
فأجبتها : .. نعم .. إذا أدنت لى : فقالت .. قل ما بدا لك ..

فقلت لهما : بودى أن أستصحب « سمية » معى إلى النيل نرتاض
لبعض الوقت .. ولا بأس من أن يرافقنا « مرزوق » فأبدت
موافقتها قائلة : « خروجها أو عدم خروجها من حقاك أنت
أليست » وأمسكت عن الكلام ضاحكة :: .

وفى الزورق عرفت « سمية » « وحلى » كلاهما بالآخر
وقضينا فى النيل وقتاً هائلاً عدنا بعده إلى القرية ، وتكرر بعد
ذلك مثل تلك النهضة ، وأصبح عادياً لدى أن يتردد (حلى)
على منزلى ويخالسنا أنا (وسمية) فى الحديقة والمنزل فضلاً عن
النيل كلما قصدناه ، - اليس هو صديق الوفى ، وخليلى الصفى ،
وكاتم أسرارى ومفزعى فى الملمات ! ..

وعلى هذه الوتيرة مضت بنا أيام حتى حان حين دراسته
وآن لى أن أفارق (سمية) لأول مرة .

اليوم الخميس ، والغد الجمعة ، ولزام على أن أسافر لأنتظم
فى الدراسة بعد غد ، كما جرت على ذلك عادتى ، وإذن فالأوفق
أن نحى هذه المناسبة بنزهة ممتعة فى النيل وعلى (حلى) أن

يعد - الليلة زورقا وينتظرنا به حتى نواتيه قرب الربوة
كالاعتاد .

(هيا يا أختاه فهذي نزهة الوداع ، ومن يدري ؟ ربما
يكون قد سبق لنا في علم القدر أن لا نلتقي ؛!
فأجابتنى بصوت متكسر حزين (عافني الليلة يا أخي من
ذلك فإني أشعر بعصدي كأنما اضطرم في جوانبه لهيب واستقر
وبقلي تسرع نبضاته ، وإحساس مخيف يداخلى ويسرى في
كياني) رباه إنه ذات الشعور الذي اعتراني ليلة حاقت بنا
الكارثة ، أناشدك الله يا أخي أن تعافني من ذلك وترجئه حتى
تحضر في مرة قادمة ، أناشدك . .

فقلت لها ملتاغا ، (سمية) أحسب ولا أظن أنك ستبخلين
على بقضاء لبناتي في يوم ما !

فقلت وقد زایلها الشعور الذي اعترأها بعض الشيء ..
وحدثت من وجومها .. أتعد ذلك الامر الهين من اللبنات ؟
إنها مبالغة ومغالاة وعلى كل حال انتظر حتى أرتدى ملابسى

وانتهزنا فرصة إنشغال عمى بتصفية حسابه مع نفر من مستأجرى أرضه فى مكتبه القريب من الباب الخارجى ومعهم (الحاج سلام) وتسللنا الى الخارج فى خفية يتبعنا (مرزوق) وما ابتعدنا عن البيت قليلا حتى سمعت صوت (عطية) الخفير المرابط أمام البيت ينادىنى وهو يهرول نحونا .. فتوقفنا حتى أدركنى قال : أجب حضرة (العمدة) فانه يدعوك فاستأذنت (سمية) لإجابته وطلبت اليها أن تسبقنى ومعها (مرزوق) الى النيل حيث يجدان هناك (حلمى) فيمكنكثان معه حتى أدركهما بعد قليل .. استأذنت على عمى ودخلت ، فرفع ناظره الى وهو يلوح لى بثلاث عرائض بيضاء قائلا : لقد أحبيت أن تجهز لنا كتابة هذه العقود قبل سفرك ، فتعال أملئ عليك ؛؛ ولم يكن من عادتى أن أرد طلبه وأتملص منه ، لذلك فما ملكت الا أن أجلس وأمضى فيما أمرنى به واستغرق ذلك وقتا ليس بالقصير اندفعت بعده الى الخارج كالمنطلق من إسمار ، أو المتحرر من أصفاد وأغلال .. العن الظروف السيئة التى

خلفتني هذا الوقت الطويل ، وماجاوزت القرية حتى صادفت
(مرزوق) في الطريق فسألته : الى أين ؟ فأجاب :

« إن سيدى « حلى » وسيدتى سمينة » فى انتظارك على
الربوة . وقد بعثنى بنقوده هذه لأحضر له « علبة سجاير » من
القرية ، فتركته يمضى وانطلقت ساريا أنمق فى ذاكرتى النجوى
الطويلة هذه التى سأسكنها فى مسامع « سمينة » وأعد نفسى لتلقى
حديثها « السحر الحلال » عند ما أجلس جوارها على حافة
الزورق بينما ينفرد « حلى » بالتجديف . . . وأخيرا قاربت
الربوة التى لفها بما حو لها الصمت العميق . فليست أسمع من
شئ غير وقع قدمى على العشب الأخضر ، والكلاء الذى رطبه
الطل فى هذا المكان ، ولكنى كنت كلما دنوت من الربوة نفدت
الى سمعى صوت آخر غير ذلك الصوت الذى تحدثه قدمى
كان كالحشرة : أستغفر الله ، بل صوت مكتوم يجاهد فى أن
ينطلق ، ولأنه يتأبى عليه الانطلاق ، واندفعت فصعدت
الربوة فى بنزع خطوات ، والى جوار جذع الشجرة فى هذا

الصحيح المنبسط : أنكرت منظرا لم أتمكن من تبينه على حقيقته
في الظل الكثيف لأول وهلة ؛؛ فقفزت قفزة أوصلتني
إلى ما أنكرت وعلى الأثر شجرت بقلبي قد تحول إلى قطعة من
رصاص : تريد أن تقفز إلى صدرى وغشاوة تغشى عيني والسنة
من اللهب تندلع من جبهتي ووجهي وتصلب في عروقي وتقلص
في عضلاتي ، ورن في أذني هذا الصوت (عاقني الليلة يا أخى)
من ذلك فاني أشعر بصدرى كأنما اضطرم في جوانبه لهيب
واستعر وبقلي تسرع بنضاته واحساس مخيف يداخلى ويسرى
في كياني : (رباه :) إنه ذات الشعور الذى اعترانى ليلة حاقت
بنا الكارثة (أناشدك الله يا أخى أن تعاقني من ذلك وترجئه
حتى تحضر في مرة قادمة . . أناشدك . .) لو أنى أطعتها
وأرجأت ذلك إلى المستقبل لما طالعت ساعتها (حلوى)
صديق الوفى . وخليلى الصفى وكاتم أسرارى ؛ ومفزعى فى
الملمات ؛ قد طرح (سمية) على الأرض ؛ وهمل أثوابها
وانتزع استارها وكم فيها وجثم فوقها تماما كما جثم فوقها اليهوديه

من قبله سوى فارق كبير صغير بينهما . هو أن اليهودي لم ينل
منها شيئاً . أما الذئب ، ذلك الذي قضى عهده معي في جلد حمل
فقد سلبها كل ما تملك ، وأهرق شرفها على نخذيها . ليتني أطعتها
إلى الله أشكو بشي وحزني - وإليك أعهد بتخليد مأساتي فاني
فريسة المرض ولا أقدر على صنع شيء . ١٠ ؟

ولست براجع ما فات مني . بلهف ولا يليت ولا لو أني
وما كنت أدري أن في الناس من لبشوا « جلود الضأن على
قلوب الذئاب »

قال لي ذلك . واغرو رقت عيناه . وغص بريقه ، ورأيت
وجهه يخضار ، ثم يصفار ، واسترخت مفاصله ، وهذا هداة
خلتها هداة الموت ، فصدرت مني صرخة ، دوت في أرجاء
المكان ، فأفاق عليها وفتح جفنيه وارتسمت على شفتيه
الذابتين ابتسامته الطاهرة وحاول أن يطأني بالكلام فاعتاص
عليه الكلام ، وكلني بعينه حديثاً لن أنساه ، وتركته على أن
أعوده في الغداة ولكني ما فارقت حتى رحل ، رحل إلى بعيد .
وهاً نذا مامرت بقبرهما أو اختلجت في قلبي ذكراهما إلا رددت
دفن الحب وأهلوه معا . فعلى الحب وأهليه السلام

تمت بحمد الله

هاتف الليل . .

رحمك يا إلهي رحماك . . فلقد طال بي المقام . . وأصبحت
وحيدا في هذا المكان النائي عن العالم وما فيه . . بعيدا عن
ضجيج المدينة . . وحركة القرية . . كل ذلك لأخلو إلى نفسي
لأسرى عنها بعض الشيء ، ولأنعم بهواء البحر . . ونسيم
الأمواج . . ولأشارك القمر في رحلته . . ولأسمع أناشيد
الطبيعة ، وأغاريد البلابل ، وأغنية السماء .

نعم : الليل ساج ، والطبيعة ساكنة ؛ وكل ما حولي يعبر
عن السكون والهدوء ، فالسمااء جميلة صافية ، والنجوم زاهية
منيرة . والقمر مشرق وضاء ، والأفق صاف رائق ؛ والبلابل
تشدو بصوتها العذب الحنون ، أغنية الطبيعة ؛ وأنشودة الخلود
رباه . . لقد عودت نفسي أن أجلس في هذا المكان حينما
تغرب الشمس وتغيب وتختفي وراء الشفق الأحمر ، وليكني لم
أر هذا الجمال إلا في هذه الليلة ، ولم أشاهد هذه الفتنة إلا في

هذه الساعات ولم أشعر بالسعادة إلا في هذا الليل فاذا يا الالهى ؟
لقد تحير عقلى ، وتششت فكرى ، وتعلق قلبى بأسباب السماء
وظلمت على هذا الحال مدة من الزمن وأنا فى عالم آخر . وفى دنيا
ثانية . وبعد قليل سمعت هاتفاً يهتف ؛ فأنصت فاذا به يقول
لقد ولدت الدنيا مولوداً جديداً ؛ وأهدت الطبيعة الى هذا
الوجود هدية ثمينة ؛ فاستبشرى أيتها الإنسية وافرحت
أيتها البشرية واحملى أيتها الدنيا رسائل « كمال » لتقدمى رسالته
الاولى إلى أبنائك العاملين المؤمنين فى هذا الوجود ليحذروا
حذره ، ولينسجوا على منواله ؛ وليحملوا المشعل ليضيئوا
الطريق إلى المجاهدين المخلصين الذين آمنوا بالسعادة فى الدنيا .
والعزة فى الآخرة ؛ وان الانسان ما خلق الا ليعمل ويجاهد
ويتفانى فى خدمة موطنيه ويفرس فى قلوبهم بذرة الوطنية
الصادقة والحرية الكاملة ، نعم سمعت هذه الاصوات فاستيقظت
من غشيتى ، وارتسمت على وجهى ابتسامة القائد الذى انتصر
فى معركة الجهاد . . فإليك يا أخى القارىء هذه الخواطر التى

كتبها الزمن في فؤاد زميلي ، وسطرتها الأيام في قلب أخى ،
وسجلتها الحوادث في تاريخ حياته .. إليك هذه الرسالة لتقرأها
ثم لتحكم عليها بعد ذلك ، وفي اعتقادي أنك ستحكم عليها بالبقاء
والخلود ، ففيها الدواء الناجع لعاشك الحسرى . وفيها الضالة
المنشودة لروحك الحسرى . وفيها النشوة البيضاء لأحلامك السكرى
وإليك يا أخى الكاتب تحياتي الصادرة من أعماق الذى
امتلاً نوراً من نور الله وضياء من ضياء الإيمان . وتهنئتي التى
تنبعث من قلب تطهر من أدران الحقد والرياء والانانية ؛ وأخيراً
هاهى يدي تصافحك وتشد على يدك بحرارة وقوة وتدفع
بك إلى الامام لتجلس فوق ذروة المجد العالية . وتجلس على
أريكة الأدب الرفيع لينخفق علم العلم والمعرفة فوق رأسك .
فتكتب لنا وتسطر من قلبك الكبير : وتسجل من قريحتك
الناضجة ما هو نافع للدين والدنيا ؛ والوطن والمواطنين !!

وإلى اللقاء على صفحات رسالتك الثانية

أخوك فى الله

محمود جمال الدين الحلو

طالب بمعهد الاسكندرية الدينى